

حارة أم الحسيني

وقصص أخرى

شهدى عطية الشافعى

إعداد وتقديم

شعبان يوسف

المجلس الأعلى للثقافة

حارة أم الحسينى

(وقصص أخرى)

تأليف : شهدى عطية الشافعى
إعداد وتقديم : شعبان يوسف



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الشافعى، شهدى عطية
حارة أم الحسينى (وقصص أخرى)؛ تأليف: شهدى عطية الشافعى؛
إعداد وتقديم: شعبان يوسف
القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط١ ، ٢٠٠٩
١٣٦ ص؛ ٢٠ سم.
١- القصص العربية القصيرة
(أ) يوسف، شعبان (معد ومقدم)
(ب) العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٤٢٢٢
الترقيم الدولى 7 - 783 - 479 - 977 - I.S.BN. 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤ .
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.
www.scc.gov.eg

الفهـــرس



المقدمة

الوجه الأدبى الغائب والمجهول
فى مسيرة شهدى عطية الشافعى

شعبان يوسف

الكثـيرون الذين قـرأوا أو سمعوا عن شـهدى عطيـة الشافعى، لم يصافحهم سوى وجهه السياسى والنضالى، وبالتالى قصة استشهاده واغتياله فى أوردى أبو زعبل فى فجر ١٥ يونيو ١٩٦٠، على أيدى الجلادين، وتحت بصر ضباط السجن، وأرسلت جثته إلى مدير الطب الشرعى فى ١٧/٦/١٩٦٠، وفى ٢٠ يونيو نشرت أسرته نعياً شجاعًا بجريدة الأهرام يقـول:

(شـهدى عطية الشافعى)

عطية الشافعى وأسرته ينعون بعد أن واروا عزيزهم فخر الشباب الأستاذ شهدى عطية الشافعى مقره الأخير ويقـولون لمن واساهم فيه:

لن نشكركم فالشكر لكم فى هذا الموقف نكران لوفائكم، وشهدى عطية وذكراه ملك لكم وأمانة فى ضمائركم.

أما أنت ياعزيزنا الغائب فإننا نرثيك بهذا:

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى

لها الليل إلا وهى من سندس خضر

وقد كان موت الموت سهلاً فرده

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفسى تعاف العار حتى كأنما

هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر

وبالطبع فقصة اغتيال شهدى تناقلتها الأقلام بغزارة، وخاض فى تفصيلها مؤرخون ومحللون ورفاق، ولم يفلت أى كتاب/مذكرات، من سرد هذه الملحمة من الذين مروا بتجربة اعتقال ٥٩/٦٤، فكتب عنها طاهر عبد الحكيم فى (الأقدام العارية)، وإلهام سيف النصر فى "فى معتقل أبى زعبل" وفتحى عبد الفتاح فى (شيوعيون وناصريون)، وسعد زهران فى (الأوردى) والسيد يوسف فى (مذكرات معتقل سياسى)

وصنع الله إبراهيم فى (يوميات الواحات)، وفخرى لبيب فى (الشيوعيون وعبد الناصر) وفوزى حبشى فى (معتقل لكل العصور)، هذا عدا كتاب (الجريمة) للدكتور رفعت السعيد، والذى جمع فيه كافة أوراق اغتياله.. والجدير بالذكر أن هناك أعمالاً أدبية تناولت الحادث، وأبرز هذه الأعمال روايتا حكاية تو لفتحى غانم، وأوان القطاف لمحمود الوردانى...

إذن معظم الكتابات التى تناولت شهدى عطية، تناولته بصفته شهيداً للطغيان، وكتعبير عن ذروة الصدام بين الشيوعيين والسلطة الناصرية فى أوج قوتها، ولذلك أغفلت حتى كتاباته السياسية، التى ساهمت بشكل بارز فى إثراء التحليلات الاقتصادية - آنذاك - وأبرز هذه الكتابات (تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦)، الذى صدر عام ١٩٥٧، وفيه يناصر "شهدى" جمال عبد الناصر بقوة، ويهتف مؤيداً لسياساته فى كافة الإجراءات الوطنية التى اتخذها ضد الاستعمار، وهناك كتاب آخر صدر فى مارس ١٩٥٦ تحت عنوان: (ماذا تريد أمريكا للشرق الأوسط)، وقدمه الكاتب الراحل محمود أمين العالم، والذى يقول عن شهدى إنه (من طليعة مفكرينا الأحرار، وله تاريخ مضىء فى تاريخنا الوطنى الحديث، فلقد كان من قادة اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى أطاحت عام ١٩٤٦ بمعاهدة صدقى - بيفن)، ويكتب العالم عن الكتاب قائلا: (أما الكتاب نفسه فمثال طيب للبساطة والعبارة المشرقة والفكرة الواضحة فى عرض حقيقة الاستعمار الأمريكى).. هذا عدا كتاب مشترك ألفه شهدى فى منتصف الأربعينيات عنوانه (أهدافنا الوطنية) وبضعة مقالات

كتبها شهدى فى مجلات وجرائد (الفجر الجديد والجماهير والبشير)، بالإضافة إلى تأسيسه لدار الأبحاث العلمية، وإشرافه على ندوة أسبوعية كانت لسان حال لفريق كبير من المثقفين الطليعيين والتقدميين فى ذلك الوقت، وهنا أستأذن القارىء فى اقتباس فقرة طويلة من مقال للدكتور أنور عبد الملك يقول فيه: (فى أكتوبر ١٩٤٤، قررنا أن نتجه إلى ناد ثقافى - سياسى، سمعنا أنه يتميز بمستوى رفيع من الوطنية والثورية والثقافة، فكان لقاؤنا مع "دار الأبحاث العلمية" بعد ظهر يوم خميس من أكتوبر ١٩٤٤، للاستماع إلى المحاضرة الأسبوعية، والمشاركة فى النقاش، ذلك بغية الاستيلاء على الدار، كان المتحدث طويل القامة، متين البنيان، متمكنا من الأداء والنفاذ إلى عقول ووجدان الحاضرين، متبسما دوما، وساخرًا عند اللزوم شدنى فى حديثه نفس المنهج التساؤلى لمحاورات أفلاطون، قالوا لنا إنه مقرر لجنة الإدارة، أى رئيس لـ "دار الأبحاث العلمية" ولكنه كان متواضعًا وشامخًا فى آن واحد، كان يعرض لكتاب رئيس الحزب الشيوعى الأمريكى "إيرل براودر" عن لقاء قادة الغرب والاتحاد السوفيتى فى "طهران" محبذًا تلاقى المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى الذى كان سيؤدى بعد سنة إلى اتفاقيتى طهران ويالطا "أى إلى إقامة القطبية الثنائية مركزًا للعالم" وبدأت المناقشة، وتتابعت الأسئلة المحرجة الغاضبة، رغم استحسان الأغلبية لأفكار المؤلف، وعرض المحاضر، وفجأة، رأيتنى أقف أسال وأتحدى، ما هذا التهاون؟ أهذه اشتراكية؟ كيف نبرر تقسيم العالم، ونحن غير موجودين فى اللعبة ولا فى الحساب؟ واحتد النقاش، وظل المحاضر مهذبًا مبتسمًا مالكًا لزمام الموقف والقلوب،

وازداد سخطى وكذا إعجابى، وبعد نهاية الجلسة، ذهبت أحييه فاستقبلنى بحرارة لن أنساها، ثم سألنى إن كنت على موعد هذا المساء، وإلا فلنذهب معًا لقضاء السهرة، ذهبنا إلى الحسين أولا لتذوق الكبدة المقلية، طبقه المفضل، ثم عدنا نجوب القاهرة، وسرنا على جانبى جسر قصر النيل من التاسعة مساء حتى شروق اليوم التالى، فتح قلبه، قص لى تاريخ حياته، وكيف أنه قرر ترك بعثة الدكتوراه فى الفلسفة إلى جامعة "إكتتيد" الانجليزية، والعودة بآخر سفينة إلى بورسعيد عام ١٩٣٩ للعمل فى سبيل تحرير مصر، سألنى عن وجهتى فى الحياة، وكنت آنذاك أنوى دراسة الفلسفة ثم الذهاب للحصول على الدكتوراه من جامعة السوربون بعد الحرب، وإذا به قبل الفجر بلحظات يضع يده فى يدى ويقول: ولكننا الآن معا، هنا أرض المعركة، ولا شك عندى أننا سنكون معًا لتحرير مصر، أما الدكتوراه، فلتؤجلها حتى ننتهى من الأمر.. أليس كذلك؟ هكذا كان أول لقاء مع شهدى عطية الشافعى "صديقًا معلمًا قائدًا.. رائدًا.. فاتحًا.." هكذا يصف أنور عبد الملك، رفيقه وقائده شهدى عطية، وقد صنعا بالفعل تاريخًا حيًا ومؤثرًا تحدثت عنه كتب كثيرة...

إذًا فكل وجوه شهدى المسرودة والموصوفة والمكتوب عنها، إما تعلقت ببعده الإنسانى، وأفكاره السياسية، أو حادثة اغتياله، ولكن هناك وجهًا كاد يغيب تمامًا عن الجميع، حتى رفاقه هذا الوجه مجهول، ولحقه الإلغاء، وهو وجهه الأدبى والإبداعى، والذى ورد على سبيل

الإشارة العابرة فقط فى كتابات البعض بينما وصفه الدكتور رفعت السعيد فى إحدى الندوات بأن روايته كانت ذات طابع سياسى محض، ولايعتد بها أدبيًا، وكتب رؤوف مسعد بأن شهدى له رواية، ونسختها الخطية الوحيدة فى حوزة ابنته، ووردت إشارة عابرة أيضا فى مقال لعبد المنعم الغزالى عن روايته "حارة أم الحسينى"، وكتب الباحث الهولندى والمتخصص فى دراسة الحركات الاشتراكية العربية عن نشاطه الأدبى، وذكر أن شهدى حصل على جائزة أدبية، ولكن "ماير" لم يوثق لهذه الجائزة، ولم يذكر أى تفاصيل عنها.. لذلك كان لابد أن نكشف عن هذا الوجه المجهول تمامًا، وغير المعروف، رغم عمقه، وأهميته وهو يشير إلى أن غيابه لم يكن محض صدفة، بل شاركت عناصر عديدة فى صناعته، حتى اليسار ذاته، والذى ركز على "شهدى" السياسى - المناضل - الشهيد - القائد، وبهذا نكون قد خسرنا مساحة واسعة من جهود "شهدى عطية" الأدبية والإبداعية بل وتفوقه فيها منذ شبابه الأول، الذى ظهرت فيه موهبته ونبوغه، واستحق بذلك أن ينشر فى كبرى المجلات الأدبية جنبًا إلى جنب مع طه حسين، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وأحمد حسن الزيات، وسيد قطب، وأحمد أمين، وغيرهم من عمالقة الأدب، رغم أنه كان - مايزال - فى الواحد والعشرين من عمره أو أقل، فهناك من يقول إنه ولد فى ١٩١٢، وهناك قول إنه ولد فى ١٩١٣، أى أنه يقارب نجيب محفوظ الذى ولد فى عام ١٩١١، وأظنه قد حظى بالنشر قبل نجيب محفوظ، وكانت بداياته تنذر بمستقبل باهر فى المجال الأدبى، لولا أن اختطفه العمل السياسى، والدرس الأكاديمى..

كانت المجلة التى نقصدها هى "الرسالة" وكان بحثه الأول عنوانه: "مستقبل الإنسانية" للكاتب الاجتماعى هـ. ج. ويلز، وكتب أعلاه: تحليل وتعليق شهدى عطية الشافعى، وفى آخره توقيعه، وذيل بـ"بكارو ليوس آداب" وفى هذا البحث المنشور العدد التاسع عشر من السنة الأولى، وفى ١٥ - ١٠ - ١٩٣٣، استطاع شهدى " أن يصيب أكثر من هدف، ويحقق أكثر من غرض..

الأول : العرض لأفكار ويلز، بشكل لافت للنظر، والإلمام الشامل بهذه الأفكار، بل إنه يرشد القارىء لمراجعة هذه الأفكار فى مظانها الأصلية، وفى مؤلفات ويلز بلغتها الإنجليزية.

الثانى : الأسلوب الأدبى الرفيع، والصياغة الدقيقة والساحرة لتلك الأفكار، فيبدأ بحثه بـ: (كان عجيبًا حقًا أن يتخرج ويلز فى كلية العلوم الملكية حيث الهندسة والجبر والميكانيكا ليصبح روائيًا، له مكانته العالمية. وكان غريبًا وهو رجل العلوم والرياضيات أن يتخطى السنين فيحلق على أجنحة الخيال ليكتب عن القمر وسكانه والمريخ وسبل الوصول إليه).. ويسترسل شهدى بهذا الأسلوب الرصين الدال والمعبر فى سرد الأفكار بوضوح وفهم متميز، حتى يخلص إلى أن هذه الأفكار الغزيرة عند ويلز، تحتاج إلى بحث آخر، ويعد القارئ به، لكننا لم نعثر على هذا البحث فيما بعد، ولكن شهدى يعود بعد عدة أشهر، وفى العدد ٣٨ أى ٢٦ مارس ١٩٣٤ من المحلة؛ ليكتب بحثًا من قسمين عن الكاتب الروسى

"تولستوى"، ويكون شهدى قد بلغ به التطور إلى حد بعيد، وأخذت قدرته التعبيرية تتضح، فيقدم لنا بحثاً شبه وافٍ فى تلك الفترة عن الكاتب الروسى تولستوى.

أما البداية الإبداعية فكانت فى مجلة "مجلتى" التى كان يرأس تحريرها ويديرها ويملكها الكاتب أحمد الصاوى محمد، ففى العدد ٣٠ نجد قصة عنوانها (من الجامعة إلى الوظيفة)، وصدر هذا العدد فى أول مارس عام ١٩٣٦، وكانت المجلة قد أعلنت عن مسابقة فى القصة القصيرة، ويتصدر الإعلان إغراء كبير يقول: (٥٠ جنيهاً مصرية تهديها "مجلتى" جوائز لأروع قصص مصرية واقعية). وتبدأ الإعلان بـ: (لأول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية تقوم مجلة ناشئة فى أول ظهورها بهذه التضحية الكبيرة، خدمة للأدب المصرى العصرى، وأخذ بيد كل رجل أو سيدة ينشد الحقيقة لذاتها والفن للفن، وعملاً على نهضة القصة المصرية حتى تتبين لنا الاتجاهات الحديثة ومبلغ القدرة على الوصف وحصر الموضوع ودقة الوقائع والتحليل السيكولوجى، ومن هو الذى ليست لديه قصة يرويها ؟ لهذا قررت "مجلتى" أن يمنح خمسين جنيهاً مصرياً جوائز).. ويسترسل الإعلان فى وصف القصص، وشرح شروط كتابتها، ولا ينسى أن يعطى بضعة نصائح مثل: (اكتبها ببساطة، بأسلوبك العادى كما حدثت لك تماماً)، بل إنه يحذر: (إذا استشهد الكاتب برسائل خطية فى القصة فالرجاء إخفاء أسماء أصحابها وكذلك أسماء الأمكنة).. ويتضح من الإعلان أن هناك وصفة للكتابة الواقعية، وربما تكون هذه الوصفة

لاقت هوى كبيرا عند شهدى عطية، فيكتب لهم قصة (من الجامعة إلى الوظيفة)، ويتقدم بها للمسابقة، وكان التقليد أن تنشر بعض قصص المسابقة، وكان المحلفون أو المحكمون فى هذه الجائزة من القامات الكبيرة كما جاء فى الإعلان وهم:

حضرات أصحاب العزة الأساتذة الأجلاء:

الأستاذ الدكتور/ طه حسين	عميد الأدب العربى
الأستاذ/ أنطون الجميل بك	رئيس تحرير جريدة الأهرام
الأستاذ الشيخ/ مصطفى عبد الرازق	الأستاذ بكلية الآداب
الأستاذ/ خليل مطران	شاعر الأقطار العربية
الأستاذ/ توفيق الحكيم	الكاتب الكبير
الأستاذ/ إبراهيم رمزى	الروائى الكبير
الأستاذ/ محمود تيمور بك	الروائى الكبير

وكانت القصص التى تنشر، هى التى ترضى عنها اللجنة، والتى ستدخل بالفعل المنافسة، وسيلحظ القارئ بعد قراءة القصة (من الجامعة إلى الوظيفة) أنها تتناول قصة الفساد الوظيفى الذى يعانى منه الإنسان المجد، والنشيط، والذى يلقى كثيراً من التعنت من زملائه، لإثناء عزمه عن هذا النشاط، وبكل الجدية، حتى لا ينكشف تراخيهم وكسلهم وفسادهم، وسنلحظ أن شهدى يوقع باسمه، ثم نقرأ (خريج الجامعة)..

ونجد هذه الصفة فى قصته التالية، والتى نشرت فى ذات المجلة (جمال رخيص) .. ولكنه يذيلها بمكان إقامته (بلدية إسكندرية).. ونلاحظ أن القصة (جمال رخيص).. تلتزم بالخط الواقعى الذى انتهجه فى قصته الأولى، ويبتعد شهدى عن الميلودرامية التى كانت منتشرة - آنذاك - فى بعض القصص، ونلاحظ أن نجيب محفوظ قد بدأ النشر فى تلك الفترة، وإن كانت الثقافة التاريخية قد عكست نفسها على إبداعه، ولكنه انخرط فى الكتابة الواقعية بقوة، عندما كتب رواياته (القاهرة الجديدة، وبداية ونهاية، والسراب).. ورغم أن البداية جاءت متزامنة، إلا أننا سنلحظ أن شهدى الأديب قد اختفى - حتى يثبت العكس - ونعرف أنه قد سافر إلى الخارج فى بعثة لدراسة الأدب، ويعود فى أواسط الأربعينيات، لينخرط فى العمل السياسى، ويؤسس دار الأبحاث العلمية، ومجلة الفجر الجديد ويكتب مقالاته السياسية، التى وجهت الحركة السياسية، وبدأ اسمه يلمع، ويأخذ منحى آخر، وتنتبه له السلطات، فيقبض عليه، ويحكم عليه بسبع سنوات سجن، مع الأشغال الشاقة، ويخرج من السجن عام ١٩٥٥، ليؤسس مركز الترجمة والنشر، ويعمل معه فى هذا المركز الروائى صنع الله إبراهيم، وفى هذا المركز تمت ترجمة كتاب (السويس) الذى ألفه يوسف إدريس بالعربية، ونقل إلى الإنجليزية، وكانت علاقة شهدى بسلطة ٢٣ يوليو علاقة إيجابية، بل إنه كان مؤيداً لكافة خطواتها الوطنية، لذلك وجدت كتاباته بعض الرواج، وعندما نشر كتابه (تطور الحركة الوطنية) استقبلته الصحف استقبالاً مشحوناً بالترحيب والتقريظ، خاصة فى جريدة (المساء)، والتى كان

يرأس تحريرها الأستاذ (خالد محيى الدين) والذى كان عاطفًا على اليسار، ومناصراً له، ومحسوباً عليه، وكانت الجريدة - تقريبا - جريدة يسارية تؤيد جمال عبد الناصر، وتناصره، وتنافس أى صوت آخر فى مناصرته، وبالفعل كان صوتها - أى جريدة المساء - أعلى من أى صوت فى التأييد، وهذا عن قناعة تامة، وليس تعبيراً عن أى تكتيكات تحالفية، وكان شهدى عطية أحد الدافعين لهذه الصيغة، وأكبر صانعيها.. وهنا تأتى المفاجأة الكبيرة، وهى روايته: (حارة أم الحسينى)، والتى نشرتها الجريدة مسلسلة على خمس حلقات، بدأت فى ١٢ أكتوبر عام ١٩٥٦، وانتهت فى ٢ نوفمبر ١٩٥٦، وآثرت الجريدة أو شهدى إخفاء اسمه فى النشر، ولكن جميع المقربين كانوا يعرفون أنها رواية "شهدى عطية" وجاء تقديم الرواية، أو تصديرها بهذه الفقرة (رأى مؤلف القصة الاحتفاظ باسمه، فنحن لسنا فى حل من ذكر اسمه، ولكنا نستطيع أن نقدم شخصه إلى القراء.. فقد نشأ فى حارة أم الحسينى فعلاً، الحارة التى يصور لنا حياتها وأشخاصها، ولهذا جاءت قصته تنبض بالحياة وتصورها فى أمانة ودقة، وقد نال المؤلف درجة عالية فى الثقافة، وقرأ كثيراً من ألوان الأدب الغربى، وتأثر كثيراً بألوان من المدارس الفكرية، ولكنه خرج منها إلى الواقعية فى الأدب، إلى تصوير الحياة بخيرها وشرها - ولهذا جاءت قصته تحلل الحاضر، ولكنها تتطلع فى الوقت نفسه إلى المستقبل.. تحلل الأشخاص لنرى جوانبهم المضيئة حتى خلال الفقر والجهل والخرافات والتخلف، لهذا رأينا أن ننشرها على أربعة أيام متتالية) ورغم هذا الوعد الأخير إلا أن الرواية لم تنشر

فى أيام متتالية، وجاءت - أيضًا - فى خمس حلقات، وليس أربع، وجاء تعليق مقدم فى الحلقة الثانية يقول: (هل قرأت يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم.. هل قرأت زقاق المدق لنجيب محفوظ، هل قرأت الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى.. إن حارة أم الحسينى مزاج من هذا كله... إنها تصور قطاعًا من معيشة الشعب فى المدينة ومعظم شعب المدينة.. يعيش فى الحوارى والأزقة،... وتسترسل التقديمات التى جاءت فى الحلقات التالية فى تلخيص الحلقات السابقة، ولكننا نلاحظ هذا التقدير العالى الذى يبديه المحرر، أو مشرف الصفحة، وكان - وقتها - الأستاذ الصحفى الشريف سعد التائه، ويربط بين حارة "شهدى" وحارات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوى، أى أن شهدى لم يكن يكتب رواية بدائية، بل إنه كان يريد أن يبز بها قامات كبيرة، ويعبر عن هوى" عميق بداخله، وسنلحظ خبرته العالية بالكتابة الإبداعية ومعرفته الواسعة بمفردات الحياة الشعبية، وأظنه كان يقدم نموذجًا تطبيقيًا على الأفكار الواقعية التى كانت محتدمة - آنذاك -، وعلى رأس هذه الأفكار جاءت كتابات محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس فى (فى الثقافة المصرية) فى المقدمة، ثم كتاب قضايا أدبية، لحسين مروة، ثم جاءت ترجمات كثيرة أهمها - آنذاك - كتابا (فى الأدب والفن) لماوتسى تونغ، والذى ترجمه فؤاد أيوب، والأدب والفن.. فى ضوء الواقعية) لچون فرسقيل، والذى نقلة للعربية محمد مفيد الشوباشى، وفى مواجهة تيارات وقوى شبه راسخة، تقودها أقلام عملاقة من طراز طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد، وغيرهم..

لذلك كانت هذه الرواية على وجه الخصوص أكثر تعبيراً وانعكاساً لتيار الواقعية الجديد، والذى بدأت تنمو ملامحه نقداً أو تنظيراً وإبداعاً، فكان فى الشعر صلاح عبد الصبور وصلاح چاهين، وفؤاد حداد، وكان فى القصة القصيرة يوسف إدريس ومحمد صدقى وبدر نشأت ومصطفى محمود وفى الرواية عبد الرحمن الشرقاوى، وفى المسرح نعمان عاشور، ولطفى الخولى، وسعد الدين وهبه، وأزعم أن رواية (حارة أم الحسينى)، كانت إحدى الركائز الإبداعية التى عبرت بقوة عن هذا الاتجاه، وربما كانت تطبيقًا جدليًا له، وانعكاسًا رفيعًا وشفافًا لمبادئه، بعيداً عن المباشرة المقيتة، والتى سرعان ما تغزو كتابات الواقعيين.

وبالطبع لم تسلم الكتابات الإبداعية من تناول مادة الواقع بغزارة، وبالتالى لابد أن يفلت الخيط من الكاتب بعض الوقت، لكن الكاتب الموهوب يستطيع أن يعيد الأمر إلى قوامه الفنى البديع، مثلما فعل شهدى فى روايته هذه (حارة أم الحسينى) ونحن هنا لن نتورط فى قراءة نقدية مسهبة تحليلية، منهجية، فهذا شأن النقاد المتخصصين، حتى لا نقحم أنفسنا، ولكن أريد أن أطوف بيسر فى مجال الرواية وموضوعها ولغتها.

الرواية تبدأ أو تدور حول شخصية رئيسية، وهو سيد، الذى نزح مع أهله من ريف الزقازيق، إلى حارة أم الحسينى، بالإسكندرية، وهناك تبدأ النسوة يتعرفن ويتلمظن ويلقحن على أم سيد الريفية،

والتى لاتتورع أن تفخر بكونها تنتمى إلى " عائلة " مرموقة وهى عائلة (المسلمية) وتنشأ مشاحنات لابد منها فى مثل هذه الحارات الشعبية، تمتد إلى مشاجرات، وتهديد بشكاوى يقدمها الأطراف إلى القسم، أو إلى (النقطة) كما يطلق عليه والد "سيد" الموظف البسيط، والذى ينال درسًا فى الأخلاق من إحدى ساكنات الحارة، والتى تنتمى لطبقة أرفع قليلاً من بقية ساكنات الحارة، ويتعرف سيد على (أطة) ابنة (أم الحسينى) وتنشأ عاطفة جياشة طفولية بين الاثنين وتتجلى فيها مجدعة بنات البلد بقوة، وشهامة أولاد البلد أيضًا، ولكن شقاوة "سيد" وشيطنته توقعه فى شراك عديدة، ويتدخل الأب أكثر من مرة، فى الحارة وفى المدرسة، للدرجة التى تنال أمه علقة ساخنة من الأب بسبب هذه الشقاوة، وتضطر (أم الحسينى لمطاردتهم لترك الشقة) حتى يتمكن ابنها من أن يتزوج فيها.. لكن يحدث أن يموت شقيقها، فتنسى حكاية الزواج، وتطفيش أسرة سيد من الشقة.. وفى هذه الأثناء تبدأ الدعاية الانتخابية لبرلمان ١٩٢٤، ويزور أحد أقرباء (أم سيد) بيتهم مع زوجته الشقراء البورجوازية، وهنا تتجلى قدرة شهدى العالية فى سرد ووصف التناقضات الحادة بين هذه الشقراء وبقية "الخلق" ويفشل "سيد" فى إكمال دراسته، ويعمل نجارًا، ولكن تصيبه السعادة من جراء ذلك، وهذا يبدو فى الهتاف الذى تنتهى به الرواية لتمجيد الطبقة العاملة "، ولعل هذا هو المزلق الوحيد الذى آخذه على الرواية، هذا الهتاف يقول المعلم حمودة لسيد: (شوف ياسيد.. إحنا الصنايعية، إحنا كل حاجة، بص كده للبيوت دى مين اللى يبنيها،

إحنا الصنايعية، شوف الهدوم اللى كل الناس بتلبسها، مين اللى بينسجها ويغزلها برضه أحنا الصنايعية.. (لا تقول لى بتوع مدارس ولا أفندية ولاباشوات ولا... إحنا الصنايعية.. إحنا كل حاجة.. إحنا وبس).

ورغم هذه النبره العالية فى تمجيد الطبقة، لكن شهدى آثر أن يلتزم التصوير الدقيق للعلاقات العميقة بين أبنائها وبعضهم، وبينهم وبين الآخرين، وجاءت اللغة فى معظمها بالعامية، أى لغة الحوار، ونلحظ أن شهدى الذى تعلم فى أوروبا، ويحمل الشهادات العليا، ويكتب فى أعقد القضايا السياسية والوطنية والفكرية يقدر على طرح الحياة الشعبية بعمق شديد، ويبدع فى وصف هذه الحياة الشعبية بطريقة تفوق كل مجايليه بلا منازع وربما تكون هذه اللهجة الشعبية المفرطة عند شهدى، هى رد على كل الذين كانوا يستنطقون أبناء الطبقات الدنيا باللغة الفصحى، وقد أثارها عبد العظيم أنيس - آنذاك - فى نقده لنجيب محفوظ، عندما أنطق شخصياته بلغة - رآها - غريبة عليهم، وهنا يرد شهدى بشكل عملى، ثانيا أراد شهدى أن يوضح أن هناك مستقبلاً زاهراً ينتظر هذه الطبقة، ورغم أن هذه الأحياء الشعبية بكل فقرها تعانى من أشكال التخلف والقهر، إلا أن هناك نقاطًا مضيئة تطل من حياتهم دوما وهذا ينسب لتفاؤل كل المناضلين آنذاك، هذا التفاؤل الثورى، والذى - بالطبع - لا يخلو من رومانسية ما.. وهذا ما يدفع الراوى لتصوير شخصياته بعمق ودقة ووضوح لتنطق الرواية بقوة، وتجسد لهذا المنهج الجديد الذى بدأ يأخذ موقعه فى الحياة الثقافية والإبداعية والنقدية العربية،

وهو منهج الواقعية الاشتراكية، بمعناها الجدلى، وليس بمعناها الزدانوفى والميكانيكى، وإن لم يخل الأمر عند هذا أو ذاك من تلك الثغرات التقريرية والتى لابد منها لزخم هذه الحياة الشعبية، ولجدة التعبير الواقعى - آنـذاك..

وأظن أن نشر هذه الرواية يمكن أن يلقى بالضوء على جزء مجهول من ثقافة اليسار، هذا الجزء المتغلغل بقوة فى ثقافتنا المعاصرة، ولكنه أزيح بقوة، وبقهر، لشدة ما عانى أبناء اليسار من تشريد واضطهاد ومطاردات فى الحصول على لقمة العيش، وبالتالى فقدنا أدباء ومبـدعين وفنانين، أو على الأقل عطلتهم هذه الملاحقات المعيقة والكارثية، مثلما حدث فى عام ١٩٥٩، وغاب هؤلاء المبدعون خلف الأسوار لسنوات خمس، مثل فؤاد حداد، وعبد الحكيم قاسم، وصنع الله إبراهيم، وحسن فؤاد، وكثيرون.

ولا يسعنى هنا إلا أن أشكر القائمين على المجلس الأعلى للثقافة لتفضلهم بنشر هذا الأثر الثمين، لواحد أصبح من قادة ثوريين ومظاليم هذا العصر، أشكر الصديق الكاتب الصحفى حلمى النمنم الذى تحمس لنشره، وأخيراً أشكر الصديق الكاتب الصحفى مؤمن الهباء، مدير مركز المعلومات والدراسات بجريدة المساء - لتسهيله مهمة البحث والتصوير لهذه الرواية.

شعبان يوسف

حارة أم الحسينى

رأى مؤلف هذه القصة الاحتفاظ باسمه. فنحن لسنا فى حل من ذكر اسمه. ولكنا نستطيع أن نقدم شخصه إلى القراء..

فقد نشأ فى حارة أم الحسينى فعلا. الحارة التى يصور لنا حياتها وأشخاصها. ولهذا جاءت قصته تنبض بالحياة. وتصورها فى أمانة ودقة.

وقد نال المؤلف درجة عالية من الثقافة. وقرأ كثيرا من ألوان الأدب الغربى. وتأثر كثيرا بألوان من المدارس الفكرية.

ولكنه خرج منها إلى الواقعية فى الأدب، إلى تصوير الحياة بخيرها وشرها.

ولكنها ليست الواقعية التى تتناول جانبا واحدا من الحياة.. الجانب المظلم. فالمؤلف يرى هناك نورا وأملا حتى فى أشد الأركان إظلاما فى الحياة.

ولهذا جاءت قصته تحلل الحاضر ولكنها تتطلع فى الوقت نفسه إلى المستقبل.. تحلل الأشخاص لترى جوانبهم المضيئة حتى خلال الفقر

والجهل والخرافات والتخلف فهو بهذا - في رأينا - ينحو بأدبنا المصرى،، وبأدبنا الواقعى خطوة إلى الأمام.

لهذا رأينا أن ننشرها على أربعة أيام متتالية..

(١)

لن ينسى أول عهده بحارة أم الحسينى لقد جاءها صبيا لما يتجاوز السابعة، حافى القدمين، عارى الرأس لا يلبس سوى جلباب على اللحم.. جاءها يسعى مع أبيه وأخيه وراء عربة يجرها حمار. والعربة تتدحرج وتتعثر والفانوس منها يتدلى متأرجحا. والحمار يضرب بحافريه. والعربجى يصرخ بالحمار ويلوح له بعصاه فما يفعل الحمار سوى أن يهز أذنيه أو ينصبهما قليلا. ثم يمضى فى خطاه لا يسرع ولا يبطئ.

وأقبلت العربة على الحارة. وتسربت إلى أنفه الصغير رائحة السمك المشوى ودخان الكوانين ممزوجة بماء الغسيل وعفونة الفضلات. كما أقبل عليه جيش من الذباب يدور ويلف ويطير ويطن طنينا لا ينقطع.

وأطلت من الأبواب والشبابيك عيون عشرات من البنات والنسوة واجتمع حول العربة عشرات من الأطفال والصبيان.

وأخذت الأصوات تعلو من الهمس إلى الضحك ومن الضحك إلى المناداة: يا بت يا توحة يا سونة، يا فلة.. تعالى بسرعة، الحقى والنبى

دول لازم فلاحين شوفى يا ختى. الزلع والبلاليص والمحالب. والراجل ماله لابس صندل وجلابية زفير وبالطو قديم.. وارتفعت ضحكة عالية: والنبى باين عليه شاريه من بتاع الروبابكيا - أمال فين مراته؟ - يا ندامه ما يكونش عازب.. يمكن مكسوف يجيبها بالنهار-أطه يا منيلة يأطه.. أنت فين أنزلى شوفى أيه دول..

وأقبلت عليه فاطمة أو أطه كما كانوا يدللونها. صبية تكبره بعام أو بعض عام. معصوبة بمدورة تكشف عن نصف رأسها. وتحمل رضيعا قد و ضعته على خاصرتها وسندته بيديها وجلابيتها. أقبلت عليه حذرة أول الامر. ثم جذبته من جلبابه: اسمك إيه؟ وأجاب فى لعثمة: سيد.. ومنين أنت.. من الزقازيق. ومين الراجل اللى وياك - ابوى.. وامك فين.. أهى جايه ورانا.

وانتشر الخبر فى سرعة البرق.. مش قلت لك.. دول فلاحين..

والزقازيق دى تبقى فين.. ومالهم الفلاحين يا بت أنت وهى.

دول حتى خيرهم كتير - زمان البلاليص دى مليانة مش من اللى قلبك يحبه والمحالب مليانة سمن.. ولا مفتقة..

وتعالت الضحكات.. ايش عرف الحمير بأكل الجنزبيل.

ولم يأبه أبوه لكل هذه الضحكات والهمسات. ولعلها لم تبلغ أذنيه بتاتا فقد كان فى شغل شاغل بمساومة العربجى، هذا يصر أنه لن يقبل

أقل من عشرة قروش، وأبوه يقسم بأغلظ الإيمان أنه لن يعطيه سوى ستة. وأنه عارف شغل الأونطة بتاع الأسكندرانية. وأنه موظف حكومى مش جاى من ورا الجاموسة وأنه مستعد يروح معاه النقطة.

وتنطلق الضحكات عالية من الشبابيك نقطة إيه يا ختى؟ أصل الفلاحين يسموا القسم نقطة.

وتنتهى المساومة بين الطرفين إلى سبعة قروش يتناولها العربجى وهو يزمجر ويلعن ويسب هذا النهار الأسود الذى أوقعه فى مثل هذه الشغلانة المهببة.

* * *

واستمرت بعض النسوة لدى الشبابيك والأبواب. ينتظرن مجىء الزوجة، زوجة الساكن الجديد.. ولكنها لم تأت إلا بعد العشاء وكان الفانوس الميرى.. الوحيد فى الحارة قد كسر زجاجه بعض الأولاد الأشقياء. فأصبحت الحارة فى ظلام دامس.

وقد اختلفت الأقاويل. والبعض يؤكدن أن أمه كانت - يا فضيحتى - لا تلبس سوى جلابية طويلة بسفره. تجر على الأرض.. وقد لفت رأسها بشال وإنها لم تعرف التمدين إلا على أيديهن . والبعض يؤكدن أنها كانت تغطى وجهها ببرقع طويل من براقع الفلاحين. أمه تؤكد أنهن يكذبن جميعا وإنها متمدينة طول عمرها وإنها كانت تلبس الحبرة شأن الذوات. فهى مسلمية بنت الحاج مسلم على سن ورمح. وهن شراشيح ورعاع من حَوش البلاد. يغرن منها ويحسدنها ويتقولن عليها الأقاويل.

(٢)

جلسوا جميعا إلى الطبلية. سيد وأمه وأبوه وأخوه أحمد ثم طفلة صغيرة ورضيع قد ألقمته الأم ثديها وكان أمامهم بضعة أرغفة وقطعة من الجبن القريش ثم عدد من أقراص الطعمية ثم عودان من القصب.

وصاحت به أمه فجأة: سيد. شوف أخوك أحمد بياكل إزاى. خليك مهندم زيه.

نعم. فقد كانت لأمه قواعد تلزمه بها فيجب أن تكون لقمته صغيرة. وكلما صغرت اللقمة دل ذلك على حسن الأدب. وكلما مست أقل الغموس. دل ذلك على حسن التربية. ولكن سيد كان ينتهز فرصة أن عينى أمه قد شغلهما شىء فيسارع فيدس إلى فمه بلقمة كبيرة أو يلتهم فجأة قرص طعمية بأسره. أو يقطع قطعة صغيرة من الجبن يضعها على أطراف أصبعه ويمد بها تحت الطبلية حيث القطة التى تتمسح بركبتيه فتتناول فتات الجبن فى خفة ثم تلعق أصابعه فى رشاقة.وكان سيد يدهشه أن هذه القواعد التى تحاول أمه أن تفرضها عليه. يعبأ بها أبوه ولا يراه يلتزمها. فوالده يأكل اللقمة كبيرة. كبيرة حقا تمتد إلى ربع رغيف بأكمله. وقبل أن ينتهى من ابتلاعها يكون قد دس بلقمة أخرى لا تقل حجمًا .. ثم لايلبث حتى يمسك بعقلة القصب فلا يكلف نفسه أن يقطعها قطعا صغيرة. وإنما ينهال عليها مصا من أطرافها ومن وسطها وهى عقلة كاملة.

وقال أبوه فجأة وهو لا يزال يلوك عقلة القصب:

- اسمعى ياوليه أنت بأى هنا مش زى الزقازيق. الزقازيق برضه فلاحين فالأحسن أنك ما تختلطيش بحد.

- يعنى أنت عارفنى. صباح الخير ياجارى. أنت فى حالك وأنا فى حالى.

- ماهى صباح الخير دى تجرجر وراها حاجات كتير. ستات الإسكندرية أنت ماتعرفيهومش. مالناش دعوى. ربنا ستار حليم. يستر على ولايانا.

- ماتخافش على.

- ما أخافش أزاى. أل يعنى بنت بلد ومدردحة.

- يعنى أنا جاية من ورا الجاموسة .

- لا. اسم الله عليك.. بنت اللورد كرومر.

- لا. بس مسلمية بحق وحقيق... وكان هذا كافيا لينفجر أبوه:

- يعنى هو احنا مانكلمش كلمة إلا وتجيبى لى سيرة المسلمية. جاتهم قطيعة المسلمية واللى وقعنا فيهم.

- ياراجل بلاش فضايح ده احنا سكان جداد ومش عاوزين الناس تسمع حسّنا من أول ليلة كده.

– شـوف المره عـاوزة تـعلمنى.. مـاهو أنت اللى جـرّيتى. إيه اللى خلاكى تجيبى سيرة أهلك.

– هـم أهلى دول جربة يعنى. مـالهم بس؟ ليه مـا تطيقش سيرتهم. مقلقل منهم ليه؟

– شوف المره وكلامـها ده ماكانش حتة مسلم زفت اللى طالعه لى بيه السما.

– وكمان بتشتم الحاج مسلم.

– ايوه باشــتـم الحج مــسلم.. وايش يكون ده راخــر؟.. القطب المتولى؟.. ده حياللا حتة ناظر زراعة. مـاكانش مخلى عند المستـأجرين بيضه ولا فرخة إلا مقاسمهم فيها بالنص.

– فشر. ده سيد البلد كلها. ده فاضل من الجدين.

– والله ياشيـخـه كان عندى أحسن آخد بياعة فجل وتريحنى ومـا تقعدش كل ساعة تقول لى مسلمية وجدى ومش جدى.

– ومين اللى زنقك.. هو حد جرى وراك.

– ويعنـى أنا اللى جـريت واراك؟ مش الله يجـحـمـهـا أم قنوع اللى قالت لى عليك هو أنا كنت أعرفك ولا شفت وشك قبل الدخله.

– الله لا يسامـحها أم قنوع. لادنيا ولا أخرة هـى اللى وقعتنى فيك هو أنا كنت لك؟..

– يعنى السفيرة عزيزة ياخيه. ده أنت ولله الحمد لا مال ولا جمال.

- فـشـــرت.. قطـع لســـانك ده أنـا أحـــسن منك ومن أهلك كلهم. ياحسرة على اللى شفته منك ومن أهلك. ولا ليلة الدخله وبيتكم المهدود اللى مش قادرين حتى تصلحوا السلم فيه. والبيت مافيهش ولا كباية ازاز ولا الشربات اللى قدمتوه فى بتوع النحاس. ولا ياحسرة لما جم ينصبوا السرير لقوا السقف واطى وعمدان السرير خرقت السقف البوص. قعدوا الخدامين يتأوزوا ويقولوا هم دول وش سراير. سرير على إيه البركة فى الحصيرة.

* * *

ولم يستطع أبوه صبرا فانهال عليها بالضرب. وعلا الصراخ. صراخها وصراخ الرضيع والطفلة الصغيرة. وانزوى سيد ومعه أحمد فى أقصى ركن. خشية ضربه طارئة أو قبقاب يصيبهما.

وهكذا سمعت حارة أم الحسينى شجارهما أول ليلة هبطا إليها وكان عليها أن تسمع بعدها هذا الشجار يتكرر كثيرا. وربما حدث مرة أو مرتين فى اليوم الواحد.

(٣)

وما كانت أوامر أبيه ولا تحفظ أمه بقادرة على أن تبقيهما طويلا فى معزل عن بقية سكان الحارة. فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى شن سكان البيت حملتهم على الساكن الجديد، أو قل زوجة الساكن الجديد.

– بنت يأطه. أنت ناصحة. روحى اعملى إنك بتشحتى أبرة وابور ولا شوية ملح من الساكنة الجديدة. وشوفيها بتتكلم إزاى.. ولا بسه إيه. وشكلها إيه..

وتذهب أطه وتطل من ثقب الباب طويلا قبل أن تقرعه. ثم تلقى بالنظرة الخاطفة الفاحصة على أمه وهى تفتح لها الباب.

وتنطلق بالإبرة ليتجمع حولها معظم السكان. وتقول لهم وهى تلهث: دى لابسه جلابية شيت بنفسجى مخططة ومدورة مشغولة بالأويمة. وفارقة شعرها من النص. وعندها ولدين وبنتين وعفشهم مش أد كده.

– وبتتكلم ازاى يامسخوطة؟..

– أنا عرفه بأى أهى بتعوج بقها شوية.

* * *

ولم يمض أسبوع حتى كانت فلة وتوحة وخدوجة وسونة قد استعرن من أمه على التوالى ملحا وشطة ومنخلا وغربالا وسكين بصل حامية. وحتى كن قد عرفن بالدقة كل ماتحتويه شقتها. الثلاثة الكراسى الموجودة فى غرفة الجلوس والكرسى الرابع المكسورة رجله. والبساط المحروق من منتصفه والتى تجتهد أم سيد فى إخفاء عيبه بوضع فروة خروف عليه. كذلك عرفن الصورتين الرخيصتين المتعلقتين على الحائط وألمن بتفاصيل السرير العالى الذى تعتز به أمه. علامة العز القديم

وبقايا السيادة وما عليه من مراتب ثلاث ومخدتين وملاءة بيضاء نظيفة لا تفرش إلا بالنهار. فاذا أقبل الليل استبدلت بها ملاءة قديمة ممزقة قذرة ثم ما تحت السرير من أقفاص فيها أرغفة خزين الأسبوع وفيها توم وبصل يضاف إليهما محلبتان من السمن. خزين العام بأكمله..

* * *

ولم تمض أسابيع أخرى ألا وقد امتدت الاستعارة من أمه إلى «الكردان والنبى لحسن أم الحسينى صاحبة البيت معزومة فى فرح. عقبال عندك».. أو «الفستان الحرير لأم حسن أصل عندها طهور ابنها عقبال ولادك».

لقد عرفت الجارات فى أمه السخاء إلى حد العبط. وكن يتغامزن بها. وكانت أمه تباهى بهذا الكرم. فجدها الحاج مسلم كانت تتحدث بجوده المديريات الأربع لا مديرية واحدة.

وأصبح سيد رسول أمه إلى الجيران عندما يتأخرون فى رد ما استعاروه من أشياء. وما أكثر ما كانوا يتأخرون.

وقد أحب سيد الجيران وأحبوه. أحبوه لأنه: «اسم النبى حارسه دمه خفيف ومقطقط» وأحبهم لأنه كان يجد متعة فى كل ما يقومون به وكل ما يقولونه. لا يستنكر شيئا ولا يدهش لشىء. إنما يستبد به حب الاستطلاع فى كل وقت. دقيق الملاحظة وسريع الالتقاط. لاتفوته غمزة عين ولا لفظة عابرة.

ولعل أحب الجارات اليه كانت أطه هذه الصبية التى تكبره بعام أو بعض عام. والتى كانت أول من استقبلته فى الحارة. فما كانت تقابله وهو طالع السلم أو وهو نازل إلا وهشت له أو أعطته شيئا مما فى جيبها.. شوية لب قليلا من الحمص أو كراملة ليمون.

* * *

ولكن أم سيد لم تكن ترتاح لجاراتها ولا تعجب بأساليبهن. كان يهمها أن ترى شقتها تضحك ضحكا على حد تعبيرها، فكنت لا تراها إلا ومكنسة صغيرة فى يدها أو خيشة تمسح بها. وكنت لا تجدها إلا منحنية راكعة ساجدة. تكنس هنا وتنظيف هناك. يستوى فى ذلك الصباح أو المساء. وما أن يخرج زوجها حتى تحمل مراتب السرير إلى النافذة ثم تضربها بعصى ثم تأتى بقطعة من العجين تلتقط بها البق من ألواح السرير وشقوق الجدران. ثم ترش الأرض بمزيج من الجاز والفنيك الذى يأتى به زوجها من صديق له فى صحة البلدية.

وكانت أم الحسينى صاحبة البيت. وهى امرأة تنحدر فى سرعة نحو الأربعين سمراء. يشوه البهق يديها وجزءًا من وجهها. تعجب لأمر أم سيد هذا وتسألها

– إيه اللى جاى لك من هد الحيل ده؟ مش كفاية الواحدة منا عليها الغسيل والعجين والطبيخ والكنس والمسح ومناهدة العيال؟.. تقومى تهدى حيلك بشيل المراتب كل يوم؟ ماعن الفرش ماتهوى.

وترد أم سيد: «النظافة من الإيمان يام الحسينى»..

ولا يعجب أم الحسينى هذا الرد فتطوح بيدها قائلة ياختى ..

وكانت أم حبشى. إحدى الجارات تغمز لأم سيد بحاجبها وتقول لها وهى تطرقع قطعة من اللبان:

– أنت فاكرة يا أم سيد أن الراجل من دول يهمة الحاجات دى؟ الراجل مايهموش إلا يلاقى الواحدة لابسة ومتوضبة ومتزوقة له. تعدل له مزاجه. والنبى ده أنت خايبة وترد أم سيد فى شىء من العناد والغضب: الواحد بيعامل الرب يام حبشى. مش منتظر حاجة من العبد

ثم تقول بعدها لابنها سيد: شوف النسوان غيرانين منى. لازم أبأى وسخه زيهم. البق – ياقرفى – بيسرح عندهم على الحيطان. والفرشة بتاعتهم عمرها ما تتهوى ألا من العيد للعيد.

* * *

وكانت. أم سيد أشد استنكارا لأساليبهن مع الباعة:

– شوف المفاضيح. اللى نازلة بقميص النوم. واللى بجلابية على اللحم. هم البياعين دول مش رجاله. محرمين علينا لازم نتغطى عليهم؟ هو ربنا منزل السخط على العباد من شوية؟

وتضحك منها الجارات ساخرات عاملة لى شيخة حضرتها . ثم يتهامسن «أصلها لسه فلاحة..»

ولم تكن أم سيد تسمح لبائع أن يراها قط. فهى أما تبعث بابنها سيد ليشترى لها حاجاتها. وأما ترجو أطه وتلح فى الرجاء إن لم يكن سيد موجودا. وإما تدلى بمقطف مربوط بحبل من النافذة وهى توصوص خلال ضلف الشباك.

وتقول لها أم الحسينى وهى فى عجب من أمرها:

هو يعنى ح يخطفوك لما تنزلى تشترى منهم؟ مش تنزلى عشان تنقى الحاجة بنفسك. وتفاصليهم كويس؟

وترد أم سيد: أصل جوزى حالف يمين بالطلاق ثلاثة.

وتلوح أم الحسينى بيدها علامة عدم الرضا وتقول ياختى ياما أيمان بالطلاق.

وكانت نساء الحارة.. يشترين من الباعة المتجولين فى الحارة كل شئ. من الفول النابت إلى البطاطا و«السمك ياللى تشوى» إلى خردوات الدلالة التى تأتى ومعها قماش وأمشاط وحلى تبيعها بالتقسيط.

وكان يلذ لسيد أن يندس وسطهن. يستمع إلى المساومات التى لا تكاد تنتهى والتى لا تخلو أحيانا من عبارات من الغزل المكشوف أو غير المكشوف.. ثم يشاهد عملية الوزن بحجارة يزعم البائع أنها: «والله العظيم أقة بالحلال» فهو يخشى الله. ويخاف الحرام. والميزان الذى كثيرا ما تكون إحدى كفتيه أطول من الأخرى. والذى كانت أم الحسينى تشاهده ولا تلبث أن تفاجئ البائع بميزانها الصحيح وبإقة من الحديد،

فيسقط فى يد البائع. وينتهز أول فرصة للتغاضب مقسما بالعظيم ألا يبيعها شيئا أبدا:

ولا ينتهى البيع ألا بطلبات ملحة.. كمان بطاطايا صغيرة ياعم عشان الواد. ياسلام: يعنى أيه سمكة ولا اتنين. تقوم تزعل العيلة وتاخذهم منها:

ولا ينسى سيد مطلقا ما حدث ذات مرة مع بائع السمك البلطى. فقد انتهزت أطه بنت أم الحسينى فرصة انشغاله بالوزن والمساومة. فدست أسماكا فى قميصها.. وما انصرف حتى أخرجت من صدرها قرابة إقة كاملة: أعطت سيد منها سمكتين فانطلق بهما إلى أمه فرحا. ولكن أمه دقت صدرها وقالت: «ياندامه.. عاوز يخش بطننا الحرام ياسيد؟» وأبت ألا أن يرد السمكات إلى أطه، فأخذتها منه أم الحسينى، وهى تشوح بيديها: ياخوى روح.. دى امك مستشيخة قوى».

* * *

وما كان أحب إلى سيد من أن يستمع إلى الدردشة التى تعقب عملية الشراء. اما على بسطة السلم أو فى الحوش أو أمام عتبة الباب.

- ده الدنيا كانت دنيا قبل الحرب أيام زمان مش ح تعود أبدا.

- والنبى يا ختى كانت وقة السمك البورى من اللى قلبك يحبه بتلاتة تعريفة.

- هو كان للبلطى سعر؟

- أنا عارفة الدنيا جرى لها أيه؟

الواحدة مش ملاحقاها منين ولا منين

والنبى ياختى كله من الانجليز ماحد غلا علينا الحاجة الإهم.

- ياخرابى على اللى شفناه من الانجليز وأيامهم السودة. فاكرة أيام المظاهرات الكبيرة من سنتين. تلاتة. لما الوابورات انقطعت والترمايات اتعطلت. والواحد لاكان عارف يروح ولا ييجى؟

.. ولما كنا بنام من المغرب زى الفراخ والانجليز واقفين لنا فى الشوارع عاملين زى القرد القاطع.

.. ولا ياعينى لما كنا نسمع كل يوم أن فلان جات له رصاصة. وأن فلان بعيد عنك فى الخطر.

- قطيعة تقطع الانجليز واللى جابهم

- ولا يوم ابن ام على الجزارة. واللى حصل له ياكبدى.

- ده كان يوم. أمه كانت ح تتجنن وتخنق نفسها. ياعينى ما عندهاش غيره لا راجل ولا عيل..

* * *

ثم سرعان ما تتطرق الدردشة إلى الآباء والأجداد. ولا يذكر سيد قط أن أبا من هؤلاء الآباء كان رجلا فقيرا أو وضيعا. إنما كان دائما معلما أد الدنيا يلعب بالفلوس لعب. لقد كن كلهن بلا استثناء بنات عز أخنى عليهن الدهر.

بل لا يذكر سيد أن زوجا من أزواجهن كان رجلا فقيرا أو وضيعا. فكانت أم الحسينى صاحبة البيت تصر على أن زوجها صاحب قهوة. وإن كان فى الواقع مجرد عامل بها وكانت أم حبشى تؤكد أن زوجها صاحب دكان كواء يعمل فيه صبيان ثلاثة. بينما كان زوجها أحد هؤلاء الصبيان. وكانت أم حسن المصرية تفخر بزوجها فهو معلم نجار موبليات شغل العرايس بينما لم يكن دكان زوجها دكانا بالمعنى الصحيح. وإنما كان زاوية فى بير سلم أراد صاحبه أن يستغله فشق جدارا على الحارة وجعل له بابا.

(٤)

وكانت أم الحسينى صاحبة البيت طويلة اللسان مشاكسة معاندة لا يمضى يوم إلا ولها خناقة مع مستأجريها أو مع الجيران. وكانت حريصة أشد الحرص على ألا تنفق مليما واحدا على ترميم بيتها، فالسلم قد انهارت منه درجة أو اثنتان. والدرابزين قد تخلع وأصبح من الخطر الاستناد إليه. ومع هذا لم يخطر قط على بال أم الحسينى أن تجرى فيهما يد الاصلاح.

وكانت الحنفيات تفسد فينساب منها الماء ليالى بأسرها. وتصرخ أم الحسينى فى جوف الليل: «ياللى ما تختشوشى. خربتم بيتى». ده بيت أيتام يا عالم، الحنفيات سايبة طول الليل وأنا بادفع المية من جيبى مافيش فى قلبكم إسلام؟ ويهرع السكان إلى كتم أنفاس الحنفيات بالخرق والدوبارة. أما الجلدة والسمكرى الذى يكلف أم الحسينى قرشا أو قرشين فهذا أمر لم يكن يخطر على بالها.

وكانت مع هذا حريصة أشد الحرص على استلام الإيجار كاملا فى الأسبوع الأول من الشهر. وإلا اكتشفت أم الحسينى فجأة أن أولاد الساكن المتأخر فى دفع الأجرة. قرود عاوزين السلسلة. وإن زوجته قد اجتمعت فيها عيوب الأولين والآخرين. فإذا لم يسارع الساكن بالدفع رغم الردح والتشليق. أتت له بأبى خطوة: قريب لها من البلطجية. تستعين به على طرد الساكن العاجز عن دفع الإيجار.

وكانت أم الحسينى تنتظر من سكان منزلها فوق هذا أن يتقربوا إليها زلفى.. أليست صاحبة البيت؟ ومن ثم كانت تنادى على أم حبشى لتساعدها يوم العجين. والسكان جميعا يوم كعك العيد.

وكان الصدام بين أم الحسينى وأم سيد أمرا محتوما. رغم ما قام بينهما من صداقة أول الامر. فلم تكن أم سيد لتتمسح بمخلوق. وهى المسلمية وجدها الحاج مسلم وأولاد الأصول لا يتوهون، مقامهم محفوظ مهما تقلبت بهم الأيام.

وبدأت المعركة بأم الحسينى تطل من أعلى السلم تراقب الصاعد والنازل فتقول فجأة:

– يأُم سيد. ابقى امسحى على الناشف كتر الميه توقع السلم.

– والمسح على الناشف ده يبأى إزاى؟

– أنا عارفه: اعرفى خلاصك هى الميه دى ببلاش؟ والا هو فرض عليك كل يوم تمسحى السلم وتغرقيه ميه؟

– أنت مبتحبيش النضافة والا إيه يام الحسينى؟

– واشمعنى أنت بس اللى عامله لى نضيفة من دون البيت كله؟

بقى يعنى أنا مش خالصه لا منك أنت ولا من ابنك سيد اللى عامل زى العفريت طالع يدب نازل يدب. وضرورى يركن على الدرابزين لما ح يوقعه؟ وأنت كمان وقاطعتها أم سيد: «اسمعى ياوليه أنت. أنا مش ح ارد عليك. أن لى أفندى لما ييجى تبقى تكلميه.

– أفندى إيه يا عمر: اصل الفلاح لما يتمدن يجيب لأهله داهيه. من إمتى حتة فلاحة زيك عرفت تقول افندى ياجربوعه يالمامة.

وجالت بعينى أم سيد الدموع. وأغلقت دونها الباب فى شدة. فلم تكن لها قدرة أم الحسينى على الردح والتشليق. وانطلق لسان أم الحسينى لا يكف. بينما أخذت تردد أم سيد لنفسها: «أصلهم دون. غجر» وقالت لابنها: «انزل ياسيد انده لى على أم حسن المصرية».

* * *

وفى طريقه إلى أم حسن. قابل سيد أطه بنت أم الحسينى. فلوت له بوزها.. وأدارت له ظهرها. وأحس سيد بشىء من الأسى فقد كانت أطه حبيبة إلى نفسه. ولكن العزة أخذته فلم يرض أن يقترب منها أو يسعى إليها.

وما أن بلغا باب الحارة حتى تلفتت أطه حذرة. إلى اليمين ثم إلى اليسار. ثم إلى أعلى. فلم تر أحدا. فهمست فى أذن سيد:

– أوع تزعل منى. ده أنا باعمل كده بس. ده أمى تموتنى لو شافتنى باكلمك وهى زعلانة من أمك.

ثم أسرعت بإعطائه قطعة من السكر وولت تجرى.

(٥)

أصبحت أم حسن المصرية نجية لأم سيد وكاتمة لسرها. ولم تكن أم حسن سكندرية. وإنما كانت قاهرية تزوجت من المعلم حمودة النجار.

وكانت نسوة الحارة يستلطفن أم حسن ويعبثن بها عندما تقول أيوه (بفتح الألف ومطها مطا طويلا) أو عندما تنادى على ابنها حسن قائلة: يادى النيله (بفتح اللام ومطعها) كلهجة القاهريات.

ولم تكن أم حسن تزيد سنها عن السابعة عشرة. رغم أن لها خمسة من الذكور. فقد تزوجت فى الثانية عشرة. وكانت تحمل على الأربعين كما تقول.

وكانت نحيفة. بيضاء اللون. ضئيلة الحجم. ولو أن عينيها ضاحكتان أبدا حتى الدموع ولم تكن تستطيع أن تغطى على الضحك فى عينيها.. ولم تكن تستطيع أن تصبر على الحزن أو الغضب طويلا فسرعان ما يغلبها الضحك من أتفه الأمور. وسرعان ما تنسى غضبها أو حزنها.. كانت طفلة أكثر منها امرأة. تجالس صبيان الحارة وصبياتها. تلاعبهم الاستغماية أو النطة وهى مرتدية فستانا قصيرا لا يكاد يبلغ ركبتيها الضامرتين.

ولكن أمه كانت تكلف بها أشد الكلف. فأم حسن لها بساطتها الساحرة. لا تخفى عن أحد شيئا عن نفسها. حتى أدق أسرار فراشها الزوجى بينما كانت تحفظ أسرار الناس ولا تنقل الكلام ولا تغتاب مخلوقًا.

وكانت فوق هذا تتقن فتح الفنجان كلمتها لا تنزل الأرض كما تصفها أم سيد. وكلما ضاقت بالأخيرة الأمور. أرسلت تنادى أم حسن تشرب معها فنجان قهوة.

* * *

وقالت لها أمه: عاجبك كده يام حسن؟

المره الشرشوحة دى؟

– ياختى ماكنتم زى السمن على العسل

– أنا عرفه جرى لها أيه؟ زى اللى ركبها عفريت.

– لازم حد حسدكم. وإلا وقع بينكم. أصل أم الحسينى ودنية. ولو أنها والنبى قلبها طيب. تعبعب بكلمتين وترجع تانى.

ثم أخذت ترج فنجان القهوة رجة خبير لتكفيه على الصحن وهى تتمتم بالفاتحة لسيدى الشاذلى. فيرسب البن. ويلصق الفنجان بالصحن وتقول أم حسن ضاحكة:

– ده أبو سيد بيحبك ياختى. مافيش فراق إلا بالخناق:

فتتنهد أمه: قطيعة:

وتحدق أم حسن فى الفنجان وتقول:

أهى صرة فلوس يأم سيد.

وتضحك أم سيد رغم أنفها: جاتك نيلة يأم حسن. فلوس منين بس؟

– طيب والنبى. فلوس جاية من سكة سفر بعد نقطتين. لا يومين. لا إسبوعين لا شهرين. وآدى جواب كمان من بلد بعيده. ومن واحد مقامه كبير بيحبك ودايما تصعبى عليه.

– ياعينى ده لازم جدى الحاج مسلم اسمعى يام سيد أنا شايفه واحدة بتشبشب لك ويتعمل لك عمل وتقول أم حسن وهى تتفحص الفنجان جيدا:

وهى عاملة صاحبتك. عينيها سودة ومفنجلة وكعبها مبروم. أهى باينه فى الفنجان بصى كده.

وتنظر أمه وينظر سيد فى شغف ولكنه لا يجد شيئا. مجرد نقطة من البن يمكن أن يصورها الوهم أى شىء. حماراً أو رجلا أو امرأة:

وتقول أمه: بس تبقى مين دى؟

– أنا عارفة بأى.

– ما تكونش أم حبشى:

(٦)

ولا يذكر سيد أنه رأى أم حبشى منفوشة الشعر أو مبهدلة الثياب. كانت زينتها على أتمها دائما سواء كان ذلك فى الصباح الباكر. أو الليل المسى. كما لا يذكر سيد أنه رأى قطعة اللبان تغادر فمها. لا تفتأ تلوكها وتمضغها وتطرقعها. وكانت ناعمة الصوت. يكاد يكون كلامها همسا. فى عينيها غزل دائم ولمعان لا ينطفئ. ترتفع ضحكتها فجأة فإذا هى شىء بين الضحك والغنج.

وكانت إذا دب شجار فى البيت أو الحارة سارعت أم حبشى إلى أقرب نافذة أو جدار وأخذت تستمتع مسرورة. معلقة بقفشاتها ونكاتها كأنما تشاهد تمثيلية ممتعة. وكان يلذ لها أن تعيد كل كلمة وكل لفظة مقلدة المتشاجرين. محاكية حركاتهم.

وكان زوجها المكوجى يسلم لها كل قرش يكسبه. فتقتصد أشد الاقتصاد. ولا تطعم اللحم إلامرة فى الأسبوع أو الأسبوعين قائلة لأم الحسينى قريبتها وصديقتها. «وهى البطن بتشكر. الواحدة لازم تحوش لها قرشين ينفعوها. الرجالة ما لهمش أمان. ولازم الواحدة تقصقص طيرها قبل ما يلوف بغيرها»..

ولكن مسألة واحدة كانت أم حبشى لا تعرف فيها اقتصادا ولا تقتيرا: البودرة والأحمر. وأصبع الشفاة. ثم عشرات من الوصفات البلدية. الفرخة السودة بدون أشارة تذبحها وتدهن نفسها بدمها..

ثم عشرات من الأحجبة. هذا للحب وذلك للخلف : فإذا ما جاء زوجها آخر الليل استقبلته على رأس السلم وهى فى قميص يكشف مفاتنها. وأقبلت عليه متهافتة باسمه ضاحكة ضحكتها الناعمة.. فيحملها على كتفيه إلى غرفتها. وأذا ما تذمر زوجها من البصارة والفول النابت والعدس واقتربت منه والتصقت به وهمست فى أذنه فى دلال: «ده كله عشانك يا حبيبى. بكره نحوش وتفتح دكان لوحدك» فتلتمع عيناه ويقبلها فى شغف راضيا. طائعا ملبيا كل طلباتها.

ولم تكن أم حبشى تكف عن التردد على أم سيد. تساعدها فى العجين أوتخريط الملوخية أو حمل الرضيع. فزوج أم حبشى لا يأتى إلا فى ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن لها أطفال يشغلونهافكانت تحتل شقة أم سيد بياض النهار وشطرا من الليل. وكانت أمه تقبل هذه المساعدة فى سلامة نية تعجب بطيبة قلب أم حبشى وتؤكد أنها لا بد من أصل عريق وكانت تصلها الهمسات أحيانا والغمزات أحيانا أخرى: أن فتحى عينيك فأم حبشى امرأة خطيرة. وقد لا يسلم أبو سيد من شباكها. فتأبى أن تصدق حرفا. أليست أم حبشى متزوجة فما يطمعها فى رجل متزوج وله أولاد. أن الناس قد أصبحوا فى تلك الأيام الغبراء لا يتركون الناس على حالهم. ثم ماذا تخشى هى على زوجها حسنين أفندى وهو كالغول يخشى أن يقربه أحد.

* * *

نعم فقد كان حسنين أفندى زوجها وأبو سيد سريع الغضب شديد الكبرياء وكانت الحارة تنظر إليه فى احترام. فعمله كان متصلا بالنيابة. وكانت للفظة النيابة رهبة شديدة فى قلوب الحارة. حقا أن حسنين أفندى لم يكن سوى كاتب بسيط فى قلم أرشيف متصل ببعض شئون النيابة ولكن هذا كان كافيا فى نظر الحارة ليعرف حسنين أفندى أسرار الحكومة.. فلم يمض على وجوده بضعة شهور حتى أصبح ملجأ الحارة إذا سحب من أحدهم رخصة أو عملت له مخالفة إشغال الطريق.. فيهرعون إليه بهذه الأوراق الخضراء أو الصفراء من أوراق الحكومة. لعله يفك لهم رموزها. ويدلهم على طريق التحايل عليها.

وكان حسنين أفندى يشغل أسفل السلم الحكومى. تنهال عليه الأوامر.. ولا يستطيع أن يتآمر على أحد. اللهم إلا الفراش الذى يجلب له فنجان القهوة كل صباح.. ولكن حسنين أفندى كان يلذ له وهو فى الحارة أن يجلس مجلس الناصح المفتى. ويلذ له أكثر من هذا أن يسمع عبارات الثناء على ذكائه والإعجاب بمهارته.. وكان ديكتاتورا فى نصحه. فكلمته يجب أن تسمع. ونصائحه يجب ألا ترد وإلا شخط بأعلى صوته: «هو أنا قلت لك تعمل كده.. ما دمت خالفتنى ما تبقاش تيجى لى مرة ثانية تسألنى عن حاجة».

* * *

وكان حسنين أفندى الحاكم بأمره فى منزله. فامرأته لا تستطيع أن تخرج أو يرى الباب طولها إلا بأذنه. ونادرا ما كان يمنح لها هذا الأذن: «أصل إحنا فلاحين ما نحبش المسخرة. والرجال قوامون على النساء. والمرأة لا تدخل الجنة إلا إذا كان زوجها راضيا عنها» هكذا كانت فلسفته التى يشرحها لأى مخلوق يعرض لموضوع المرأة..

وعرفت عنه هذه الصرامة.. فما أن تسمعه النسوة وهو على رأس الحارة يتنخم ويبصق بصقته العالية التى عرف بها. حتى يولين الأدبار هذه تدخل شقتها. وتلك تدفع الباب المفتوح عليها. وامرأته تهرع إلى مسكنها أن كانت عند جارة لها.. والجارات يتفرقن متفازعات إن كن مجتمعات فى شقة أم سيد.

إلا امرأة واحدة. أم حبشى فقد كانت تختار لحظة صعوده السلم لتهبط هى ويرتفع صوت أبيه أجش: ياساتر وتكون أم حبشى قائمة على بسطة السلم والفوطة تغطى رأسها وتكشف عن بعض وجهها وجميع عينيها وتفسح له الطريق متخاجلة. بعد أن تكون قد فصلت منه جبة وقفطانا كما تقول أم حسن المصرية. وتكون قد عرفت رباط رقبته ما لونه ونوع البذلة: أكانت المخططة أم ذات المربعات. فلم يكن أبو سيد يملك غيرهما.

وكان مستحيلا ألا تصطدم أم حبشى بأبيه مرة أو مرتين فى النهار الواحد. وهى القائمة القاعدة فى شقته. كان يأتى أبو سيد فجأة.

فتسرع أم حبشى لتخرج. ولكنها تبحث عن القبقاب فلا تجده. فتضطر أن تختبئ فى دورة المياه.

وانتهى بهما الأمر إلى أن يلتقيا. أم حبشى وأبوه. وأن يتبادلا التحية. وأن تكون أم حبشى الوحيدة فى الحارة كلها التى تجرؤ على مجالسة أبيه بل ومسامرته. وما يذكر سيد أن رأى أباه يرتاح إلى حديث مثل حديثها أو ينفجر ضاحكا كما ينفجر وهى تلقى بنكاتها.

وعلت الهمسات فأصبحت كلاما. وارتفع الغمز واللمز إلى مقام التصريح وزارت أم على الجزارة أم سيد وصاحت بها: «أيه ده؟ أنت عبيطه يابت؟ ماتفتحى عينك» وبدأت أمه يلعب فى عبها الفار كما تقول. ولكنها محرجة لا تستطيع أن ترفض يد أم حبشى ولا أن تطردها. ثم ذات كبرياء.. ماذا؟ أيقال عنها أنها قد أصابتها الغيرة أبدا - وقالت لأم حسن المصرية: «ياختى.. ما يتجوز ولا يتفلق. على الأقل يريحنى. ده أنا ما با اطيقوش بالليل».

ولكن أم سيد رغم هذا. بدأت تكره أم حبشى وتود لو أنها لم تر وجهها: وأخذت تقول لنفسها: «دى ميه من تحت التبن. والراجل ياختى شايفه عنيه مايحه. تقطع الرجاله على سنينهم عاملين ياختى زى الكلاب».

ولم يفهم سيد سر هذا التحول من أمه فقد كان يستملح أم حبشى ويلذ له أن تقترب منه حتى تكاد تلتصق به وقد برز نهداها من قميصها وأخذا يعلوان ويهبطان ثم تضحك ضحكتها الناعمة. وتقبله قائلة:

«سيد النبى هات لى بتلات مليم طرشى من عم محمود. أصله بيتوصى بيك. وهات بمليمين لب. عشان نقزقزه سوى».

ولكن جاء يوم أدرك فيه سيد أن أمه كانت على حق فى كراهيتها لأم حبشى. لقد نادته أطه يومها أن يسرع وأخذا يتسمعان معا من ثقب الباب. فإذا أم حبشى تقول لام الحسينى:

– «والنبى لالطشه منها الفلاحه الجربوعة دى. طالعه فيها قوى قال جدها كان يجيب الهدوم محملة على الجمال ويوزع على الفقراء ياختى على الفشر. أمال كان يجيب لها هدمة كستور وهى قاعدة عريانه طول الشتا. وهى أيه دى فى وسط النسوان؟ دى زى الراجل وشها مفقع. وطويلة طويلة تقوليش نخلة.. وهو ياعينى عليه. وشه أحمر يبك الدم. وميت فى دباديبى.

وتقرصها أم الحسينى: آه يام عين فارغة. أمال أن ما كنتيش متجوزة.

وتضحك أم حبشى قائلة: «مين عارف؟ الرجاله مالهمش أمان. يمكن جوزى يسيبنى. وأنا ماعنديش عيال ومحرومه منهم «وهنا يترقرق فى عينيها الدمع». ولكنها لا تلبث أن تضحك وتقول: «أهو حسنين أفندى يبأى يسد وهو ياختى موظف حكومة. مش حتة مكوجى».

– ياشيخه حرام عليك. ده عنده عيال. وتعملى إيه بعياله؟

وضحكت أم حبشى ضحكتها المألوفة وقالت: «ده أنا باضحك. أهو كلام ابن عم حديت. البركه فى مصطفى جوزى»

* * *

واحتار سيد: أيعيد على أمه ماسمعه؟ وساءل أطه فقالت:

الوليه دى باكرهها زى العمى. والنبى إن ماكنتش خايفه من أمى لكنت رحت قلت لأمك.

ولكن أم الحسينى أعفت سيد مشقة الحيرة. لقد كشفت بنفسها القصة بأسرها فقد تشاجرت مع أم حبشى. نعم كانت هذه صديقتها وقريبتها. ولكن حارة أم الحسينى لم تكن تعرف صداقة تدوم طويلا ولم تكن تعرف قرابة تخلو من مشاحنات حادة قاسية.

وارتفع صوت أم الحسينى: «يالطاشة الرجالة ياعاقر. قال أم حبشى قال. هو فين حبشى ده؟ هو أنت عمرك شفتيهم بعينك. ياللى بتخطفى الرجاله من نسوانهم. عملاهم تجارتك» وأجابت أم حبشى بصوت غير مسموع إذ قلما كان يرتفع صوتها: «آه يام بهق ياوحشة. هو الراجل إجوزك إلا لأن عندك بيت؟ لولا بيتك عمرك ماكنت شفتيهم» ويظهر أن اجابتها هذه أوجعت أم الحسينى وأصابتها فى الصميم ففقدت عقلها وصرخت بأعلى صوتها.

«يام سيد. يام سيد المره أم حبشى ناوية تلطش جوزك. دى وقعت لى بلسانها. المفضوحة القارحة. ما تخليهاش تخش لك بيت. ماتخليهاش تخطى العتبة دى حاطة عينيها على أبو سيد وبتسحر له..».

وتسـربت الأنبـاء إلى حسنين أفندى.. وكانت ليلة سـوداء.. على أم سيد.. لقد اتهمها زوجها أنهاهى التى سلطت أم الحسينى لتشهر به. وصرخت أم سيد فى وجهه: «أنت فاكرنى حماره خالص الحارة كلها عارفة. ياراجل ياللى عينك مايحه».

وكان نصيب أم سيد علقة حامية. كيف جرأت أن تنسب لزوجها هذه التهمة الباطلة.. هو أنا فاضى للكلام الفارغ ده. ده احنا ورانا عيال عاوزين نربيهم.

وجاء زوج أم حبشى مبكرا تلك الليلة وسألها: هو أبو سيد بيضرب مراته ليه وتهافتت أم حبشى وازداد التصاقها بزوجها وضحكت ضحكتها الناعمة: وهمست فى أذنه:

- أنا عارفه أهم دايما بيخانقوا وشدت أذنيه وأخذت تقبله.

ولكن أم حبشى اضطرت ان تقطع رجلها عن أم سيد وزوجها.

كان حسنين أفندى يريد الخير لولديه. سيد وأحمد. كان مصمما على أن يبيع الحلة لولزم الأمر فى سبيل تعليمهما. حتى ينالا شهادة عالية.. وحتى يهربا من المصير المذل الذى ينتظر صغار الموظفين أمثاله. لقد كان يستطيع. كما يقول - أن يدفع بهما صبيانا لدى حلاق أو حداد. كما يفعل معظم سكان الحارة. فيدران عليه الخير. ويعينانه على بعض مايجد من جهد فى الرزق ولكنه لم يفعل. ضناً بهما على المصير التعس لأصحاب الحرف الصغيرة.

ولم يكن أحمد بمشكلة. كان أكبر من سيد سنا. ولكنه أضأل حجما حتى ماكان يصدق أحد أنه الأخ الأكبر كان أحمد زاويا نحيلا مصاباً بالانيمياء وكان يخشى آباه كل الخشية. فيقبل على دروسه كل الاقبال. حتى لينتزع منه أبوه الكتاب انتزاعا. ويأمره بالنوم حرصا على صحته. وكـان أحـمـد فى المدرسـة الطالب المجـد الدؤوب المؤدب. يربع يديه فى الحصة مصغيا. وقلمـاتراه فى الفسحة إلا ومعه كتاب يقرأ فيه. لاشأن له بلعب التلاميذ وضحكهم وصياحهم.

وكان أحمد لا يعرف سوى طريق البيت إلى المدرسة. والمدرسة إلى البيت. لا يلعب فى الحارة. ولا يذهب عند الجيران. ولا يكاد يعرف أحداً ولا يكاد يعرفه أحد. ولهذا لم يسم الجيران أباه بأبى أحمد وأمه بأم أحمد. وإنما كانا أباسيد وأم سيد.

وكان سيد هو المشكلة. ففى المدرسة. وكانت المدرسة تابعة لجمعية خيرية - وفى حصة اللغة العربية. وكان المدرس شيخا معمما مسنا. لم يكن سـيـد يسـتطيع أن يمنع نفسـه من أن يخرج سن ريشـة انجليـزى يقضم نصفها ثم يضع السن بين الغطاء والدرج. ويضرب عليها بأصبعه. فيخرج صوتا. سرعان ما يصبح أصواتا. إذ يعبث التلاميذ بسن ريشهم هم الآخرون.. ويصحو الشيخ فجأة - وما أكثر ماكـانت تصيبـه سنة من النوم - ليقول عبارة واحدة لا غير:

- سيد وشك فى الحيط..

ثم يستسلم بعدها لرقاد لذيذ ولكن سيد لا يسكت ووجهه إلى الحائط فسرعان ما يبدأ الزن.. صوت يخرج من الأنف ولا يفتح له الفم. فينقلب الفصل إلى زن لا ينقطع.

ويصحو الشيخ فجأة من جديد ليقول:

سيد وشك فى الحيط

فيرتفع ضحك التلاميذ. فإذا ما أدرك الشيخ خطأه صرخ:

- سيد. أخرج بره. عشر نمر من الأخلاق.

* * *

وكان أحب شيء فى المدرسة إلى سيد ساعة الفسحة. وخاصة فسحة الغداء الطويلة، حتى ينقلب سيد غلاما عابثا ضاحكا. تمتلئ جيوبه بعشرات من البلى من كل صنف. الكبير منها والصغير الحديدى والزجاجى. فما كان يكف عن لعب البلى. وكان يكره أن يسرقه أحد أو يغشه مخلوق. عندئذ ينقلب شيطانا صغيراً. يلبس طربوش هذا. وينتزع الزر من ذاك. ويمزق الأزرار لثالث. وينتهى الأمر بشكواه إلى عبد الحميد أفندى ضابط المدرسة.

وكان عبد الحميد أفندى طويل القامة معقوف الأنف. لا تفارقه العصا أبدا. وكان له ابن اخت. تلميذ فى المدرسة. وكان التلاميذ يدعونه بالخباص. فما يصل إلى علمه شيء ألا نقله بحذافيره إلى خاله وكان

التلاميذ لهذا يتحاشونه. أما سيد فكان سوط عذاب على هذا الخباص أذا رآه ماشيا دفعه من وراء دفعة يسقط بسببها على الأرض. وإذا رآه يلعب أفسد عليه لعبه. وإذا ماراه منزويا جمع حوله بعض التلاميذ يصيحون به: الخباص أهه. فيذهب الخباص باكيا شاكيا. فيسرها عبد الحميد لسيد.

فما أن يأتى سيد مشكو فى حقه. حتى ينهال عليه عبد الحميد أفندى بخيزرانته الطويلة. دون أن يحقق أو يفحص. ثم يأمره بتسليم مامعه من بلى. ولكن سيد يصرخ فى ثورة.

- دول بتوعى.

ويقابل عبد الحميد أفندى صراخه بصراخ أشد: دى مدرسة. مش حارة ياشاطر. لعب البلى ممنوع.. فقد كان كل نوع من اللعب ممنوعا فى عرف عبد الحميد أفندى.

ويأبى سيد إلا أن يرد رغم الغضب.

- كل التلامذة بتلعب بلى.. اشمعنى أنا؟

ويشتد حنق عبد الحميد أفندى.

- اشمعنى أنت؟ لازم تعرف أنك هنا بتتعلم مجانا،، لا بيدفع أبوك قرش ولا عشرة. أولاد الفقراء اللى زيك لازم يكونوا مؤدبين. وما يلعبوش أبدا ويلتفتوا لدروسهم بس.

وكانت هذه العبارة تؤذى سيد أشد الإيذاء. فعبد الحميد أفندى يأبى إلا أن يرددها أمام جمع من التلاميذ. فيزداد سيد إصراراً. وتتساقط الدموع من عينيه وينتهى به الأمر إلى أن يقضى نصف الفسحة ووجهه إلى الحائط تحت الساعة الكبيرة القائمة فى حوش المدرسة مع خصم عشر درجات من السلوك: ولكن سيد لا يعبأ بهذا. ما دامت حبات البلى باقية فى جيوبه:

ولم يكن سيد يكره شيئا مثلما يكره حصة خاطر أفندى. مدرس اللغة الأنجليزية، وكان خاطر أفندى يتخذ منظارا سميكا ذا حجارة مزدوجة. يحيط بها أطارمن المعدن الأبيض. كثير ما ينزلق إلى أرنبة أنفه حيث يستقر هناك ما لم يرفعه خاطر أفندى بأصبعه. وكانت يداه معروقتين ذات أصابع طويلة وأظافر متسخة لا يفتأ يقضمها بأسنانه..

وكان كل مايهمه من تعليم اللغة الانجليزية هو التهجى والإملاء فإذا دخل الفصل ومعه كراسات الإملاء.. تملك التلاميذ وجوم. واشتد اصفرار الوجوه. وأخذوا يفركون أيديهم فى أرجل البنطلون. إذ كان الضرب امرا لا مفر منه. فالغلطة الواحدة فى الإملاء تساوى فى تسعيرة خاطر أفندى عصاتين يستوى فى ذلك من يخطىء فى كلمة واحدة أو عشرين.

وكان خاطر أفندى لا يكتفى بحد المسطرة يضرب بها. ولكنه كان يطلب من المضروب أن يجمع أطراف أصابعه.. وأن يمد يده مضمومة. ثم ينهال على هذه الأطراف..

وكانت كراسة سيد للإملاء تختفى بطرق عجيبة. كثيرا ما تفوت على خاطر أفندى. ولكنه يكتشفها أحيانا. فيرتفع صوته.

ويقف سيد صامتا.

- فين كراستك؟

- حضرتك أخذتها.

- وكمان بتكذب. أخرج بره: فإذا ما خرج سيد تمتم خاطر أفندى.

- لا تعلموا أولاد السفلة العلم.

ويحمل البريد شهادة سيد وحول درجة السلوك حلقة حمراء وبجانبها ملاحظة بالمداد الاحمر «نجلكم سئ الأخلاق. يقتضى مراقبته والتشديد عليه» ويمنعه أبوه من المدرسة أياما ويحبسه فى غرفة يغلق بابها بالمفتاح ويعين له دروسا عليه أن يحفظها طول النهار وإلا فلا طعام وإلا فالعلقة إياها. وتصوصو أمه خلال ثقب الباب: سيد.. ذاكر دروسك يابنى. عشان أبوك ما يضربكش ذاكر ياحبيبى قطعت قلبى. يانا يابختى المايل!

ولكنها لم تكن تستطيع إسعافه بطعام ولا مساعدته بشىء . فقد أقسم أبوه أيمانا بالطلاق ثلاثة إن هى فعلت. وهى امرأة تخشى الله.. وتخشى أن تعيش فى الحرام وتغضب أم حسن المصرية قائلة هو أيه ده؟ هو حكم قره قوش؟ هو احنا فى سجن قره ميدان؟

وترد أمه: أهو بيربيه. عاوزه يطلع أفندى ومتعلم

- يقوم يقفل عليه الأودة. عشان يركبه عفريت؟

- أعمل أيه لابوه؟ ده قرد مسلسل ده جن مصور أعمل أيه بس.

وتأتى أم حسن بكرسى وتجلس بجانب الباب تحكى لسيد حدوته. وما كان أحب الحواديت إلى سيد.

وينطلق سيد فى الغرفة يدور كالفأر فى المصيدة. لا يستقر ولا يهدأ ولا يفتح كتابا. ويشتد به الجوع. وتصيح عصافير بطنه كما يقول. فيضع كرسيا فوق المنضدة حتى يبلغ النافذة الوحيدة التى تطل على المنور. وكانت عالية يصفر بفمه وكانت أطه تعرف هذا الصفير إن سمعته. فتفزع إليه ويشكو لها مابه فتصيح مغضبة:

– والنبى لو كنت منك ما أروح المدرسة غيظة فيه. أيه أبوك ده؟

ولا تلبث أم الحسينى أن تصرخ: أطه سارحه فين.

فتنطلق أطه. ولكنها لا تلبث أن تعود حاملة إلى سيد رغيفا محشوا بالجبن قد سرقته من أمها. فيدلى لها بدوبارة فما كانت جيوبه تخلو قط من هذه الأشياء ويفتح له أبوه الباب عند آذان العصر ويأمره أن يجلس أرضا وأن يرفع رجليه. وتنهال عليه العصا إذا أخطأ فى عبارة واحدة. أو تلكأ فى لفظه أو تعثر فى نطق ريودى جانيرو عاصمة البرازيل ونيكا راجوا التى عاصمتها نيكاراجوا فأبوه رغم رسوبه فى الشهادة الابتدائية ثلاث مرات. كان يظن نفسه العالم العليم. فهو يريد من سيد أن يحفظ الدرس عن ظهر قلب.. كما أنزل. لا يفوته حرف واحد.

ويلج سيد فى العناد فلا يحفظ شيئا قط. بينما تتورم رجلاه من كثرة ما يصيبهما من أذى وتأخذ أمه فى البكاء والنحيب وتتدخل أم حسن المصرية فتكلم أباه من وراء الباب فى شأن سيد وتكون أوراق الغياب قد تكدست تسأل فيها المدرسة لم غاب سيد؟

أو لأن سميحة «اللى عامله لى مسخوطة» قد «شتمت الواد حمامه. وهى والنبى تخلفه. عامله لى عقلها بعقله».

وترى أم سيد ابنها وسط هذا العجيج المختلط فتصرخ: سيد اطلع لأحسن لأبوك زمانه جاى. يشوفك فى الحارة يموتك. سيد اسمع كلامى أحسن لك. واطلع ذاكر دروسك. يا غلبى من العيال. ياختى ما عدوش يسمعوا الكلام. ده جيل آخر الزمان.

ولكن سيد يكون وقتها غارقًا إلى أذنيه فى لعبته المحببة. الكرة الشراب وتذهب صرخات أمه هباء. فأمر أبيه تتكفل به أطه. فعيناها حادتان تبصران من بعيد وهى تقف على رأس الحارة تلاعب بعض أترابها من البنات أو تتشاجر مع بعض الصبيان أو تعابث بعض الباعة ولكن ما أن ترى أباه مقبلا حتى تسرع سيد. سيد إلحق. أبوك جه.

وهنا يهرع سيد فيلتقط طربوشه وكتبه من أم حسن المصرية. وتلتفت فإذا هو فص ملح وداب

وكان سيد لا يحب الهزيمة. ففريقه فى الكرة إذا ما انتصر يتخذ من الفريق الآخر حميرا يركبونها ويدفعونها بأرجلهم وهم يستندون إلى الحائط. وكان يلذ لسيد هذا الركوب. أما إذا انهزم فريقه، أبى سيد يركبه أحد، فيكون الشجار. وما كان سيد يتهيب الشجار وما كان سيد يعبأ بأى الغلمان يصطدم به. أهو ند له فى العمر والقوة. أم يفوقه سنا وبأسا.

فقد كان خفيف الحركة سريع الضربات. لا يتأخر عن استعمال أظافره وأسنانه. لا يعبأ أين يكيل الضربات لخصمه.

وكثيرا ما كان يخرج من هذه المعارك مجروحا. مورم العينين. وتهرع أطه عندئذ إلى أمه تبلغها. ولكن أمه لا تصنع شيئا: «إيه بس اللى ح اعمله. إذا كان ما بيسمعش الكلام؟ غلبت أقول له بلاش لعب مع الولاد الوسخين دول. عاوزانى اتشرشح زى الشراشيح اللى فى الحارة؟».

وتصيح بها أطه غاضبة: «يعنى تسيبيه يموتوه؟ هو مش ابنك؟».

ولكن الشاكيات لا يلبثن حتى يأتين إلى أمه: «شوفى ابنك سيد شوفى ضرب دقدق يخلصك كده؟»..

وتندفع أطه: «هو إيه يعنى؟.ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى:.. ماهو ابنك اللى ضربه الأول. شوفى عور سيد إزاى».

- وإنت مالك يامقصوفة الرقبة؟.. يابيت العيب. يابتاعة الصبيان.

ولكن أطه لا تعبأ وتغمز بحاجبها:

- بتاعة الصبيان بتاعة الصبيان ايش حشرك مش أحسن ما أكون بتاعة الرجالة.. اللى على راسه بطحة يحسس عليها..

- قصدك ايه يابت يابتاعة الحوارى؟ البنت لسه مفعوصة وطالع منها الكهن آمال لما تكبرى شويه تعملى ايه؟..

وسرعان ماتتدخل أم سيد تطيب خاطر الشاكيات. وتقسم عليهن أن يشربن القهوة إذ أن بنها مشهور. فهى تطحنه بنفسها. وتمزجه بالحبهان. وتأخذ تشكو لهن أمر سيد:

شوفى آخوه أحمد هادى وعاقل ازاى اللى عمره مانزل الحارة. بييجى من المدرسة يقلع هدومه ويتوضا ويصلى ويقعد يذاكر. ربنا واخد بيده ودايما الأول. ولا أبوه يضربه ولا حاجة.

- والنبى ياست أم سيد. سيد ابنك ابن حلال. مش لسه صغير؟.. كله من مقصوفة الرقبة أطه هى اللى مخسراه.

ويكون سيد وقتهاباسمًا راضيا. وهو يحاول أن يخفى أصبعا له قد جرحت. أو جلدا له قد قشط. أو أنفا قد تورم ولا يلبث أن يلحق أمه ويترضاها. فترضى ولا تقول لأبيه شيئا.

* * *

وكان مستحيلا أن يلعب سيد الكرة فى الحارة دون أن يصطدم بأم على الجزارة فقد كانت عدوة الكرة الشراب. فإذا مافاجأت الغلمان وهم يلعبون بها جرت وراءهم صائحة ملوحة بعصاها. فولوا مذعورين.

وكانت أم على فتوة الحارة بلا منازع. تبيع اللحم خلسة من السلخانة. وتذبح العجل الوقيع بنفسها. وتجمع الصبيان وتدور بهم تنادى على اللحم اللى زى اللوز أرخص من السوق قرشا أو قرشين وياويل من لا يشترى منها. فقد كانت طويلة اللسان. كما كانت شديدة البأس لا تتأخر

عن استعمال يديها.. حتى أم الحسينى كانت تتهيبها وتعمل حسابها ولا تتأخر عن شراء أقة من لحم كل عجل تذبحه.

ولم تكن الحارة تخشى بأس أم على الجزارة فحسب. وإنما كانت تعطف عليها أيضا. فهى لا تفتأ تذكر أن ابنها وعائلها الوحيد. قد قتله الانجليز فى ثورة ١٩١٩ .

.. وذات يوم جاءت الكرة عالية فكسرت لوحا من الزجاج فى بيت أم على. فخرجت ساخطة لاعنة. وفر الغلمان جميعا تاركين كرة سيد الشراب. وكانت جديدة. قد سرقت له أطه ما يلزمها من جوارب قديمة. وخاطتها له أم حسن المصرية. فأمسك سيد بالكرة لا يتخلى عنها. ولا يتحرك من مكانه. وصاحت به أم على:

– ياختى على عينك الجامدة. بأى يعنى بس أنت اللى ما بتخافش؟..

وحاولت أن تنتزع منه الكرة فتشبث بها. وعلا صوته بالبكاء ولكنه أخذ يقاوم فى عنف لا يتخلى عن الكرة أبدا. وكلما زادت مقاومته. علا صراخه. حتى أصبح مزعجا.

وصاحت بها أطه منفعلة: ماتسيبيه هو أدك؟..

وجاء الرد: وأنت مالك يامفضوحة هو أجرك محامى عنه؟..

وأطلت عليها أم حسن المصرية: والنبى ياخالة أم على. الواد يتخض يركبه بسم الله الرحمن الرحيم.

فأجابتها أم على: مالكيش دعوة ده زى ابنى وياربيه ولم تطق أطه صبرا: مالناش دعوة أزاى؟.. وانفجرت تبكى.

وكانت أمه ترقب كل شىء فى قلق وجزع. ولكنها لا تستطيع أن تقول شيئا فهى تخشى بأس أم على.

وتركت أم على الكرة لسيد. وأخذت ترتب على رأسه وتهدئ من روعه وأصرت أن تصحبه إلى بيتها. حيث غسلت له وجهه ودفعت إلى فمه بملبسة. وفجأة ضمته إلى صدرها. وانسابت دموعها: فكرتنى بابنى على. كان زيك متشيطن وهو صغير. ولما كبر بأى معلم جزار. أد الدنيا. كان أحسن شنب يكش منه جم الانجليز. الهى ما يكسبهم قتلوه آه يانى ياما نفسى آكل زور واحد منهم بالحيا.

لن ينسى سيد أبداً دموعها وهى تتساقط على خده هو. بينما خده الآخر مستريح إلى ثديها الضخم وذراعاها السمينتان من حوله. ولم تعد أم على بعد هذا اليوم مصدر رعب لسيد.

وأن استمرت مصدر رعب لغلمان الحارة كلها.. فلم تكن تراه. إلاهشت له ضاحكة. وتمتمت معجبة: وادشقى صحيح تقوليش جنى مصور إنما دمه خفيف.. ثم تنطلق زاعقة. تجرى وراء هذا أو ذاك من العابثين ولم يكن يراها سيد إلا هش لها مبتسما.

لقد ربطهما شىء. لم يكن يدرك كنهه.

(٩)

لم يكن سيد يفهم فؤاد أبدا. كما لم يكن يفهم الست أم فؤاد صاحبة البيت الكبير المطل على الشارع والذى يكتفى من الحارة بأن يولى لها ظهره وأن يملأها برائحة دورة المياه والمطابخ فيه.

كان سيد يفهم حسن وحميدو وحمامة ودقدق والواد جعلص. رفاقه فى الحارة يتبادل وإياهم اللكمات. كما يتبادل معهم الحلوى والبلى. أو يختطفها منهم أو يختطفونها منه. يمزقون له ثيابه ويمزق لهم ثيابهم.. ولكن فؤاد هذا الصبى الأنيق الملمع الذى لا يلعب مع أحد. ولا يخلع البذلة أبدا. ولا يمشى حافيا قط. والذى يملك وحده عجلة والذى يسير والخادم يسعى بين يديه.. كان فؤاد هذا شيئا لا يفهمه سيد. ولا يستريح له ولا يطمئن إليه.

وكانت كل نسوة الحارة يطلق عليها أم كذا. أم على. أم الحسينى. ولكن أم فؤاد كانت تنفرد بلقب آخر. الست أم فؤاد. وكان كل نسوة الحارة يلبسن الملاية اللف والبرقع الاسود والقصبة الصغيرة المذهبة يضعنها فوق أنوفهن إذا ما خرجن. أما الست أم فؤاد. فكانت الوحيدة التى تلبس الحبرة. وتغطى وجهها بيشمك أبيض. ليس فوقه قصبة

وكانت كل نسوة الحارة يمشين حافيات فى بيوتهن أو يتخذن قبقابا على أحسن تقدير. إلا الست أم فؤاد وابنتها علية هانم. فكان الحذاء والجورب لا يفارق أرجلهن ليل نهار. صيف شتاء.. ولم تكن

عائلة واحدة فى الحارة لديها خادم واحد. أما الست أم فؤاد، فكان لديها خادمان.

وكانت سيدات الحارة يتزاورن. أما الست أم فؤاد فكانت لا تزور أحدا من سكان الحارة. ولا يجرؤ أحد على زيارتها وكانت لسيدات الحارة وللست أم فؤاد لغة أخرى. إذ كانت تطل أحيانا من النافذة المطلة على الحارة. فتصطدم عيناها بعيون أم الحسينى أو أم حبشى أو غيرها، فلا تبادلهن السلام. إنما تنتظر أن يبدأنها فإذا قلن صباح الخير ياست أم فؤاد أجابت بألفاظ لاعهد لسيد بها: أسعدتن صباحًا كيف حال الأنجال؟ وإذا قلن لها إذاى علية هانم ربنا يجيب لها العدل أجابت الست أم فؤاد مترفعة: خللى العسل فى جرابه. لما يجى له أسعاره.

وسأل سيد أطة عن الست أم فؤاد هذه فهمست فى أذنه:

– أصلها غنية. غنية قوى.

نعم كان بيتها الضخم المطل على الشارع. والذى يكتفى بأن يولى ظهره للحارة. يدر عليها عشرين جنيها، فوق عشرين أخرى من قطعة أرض ورثتها عن المرحوم زوجها. بينما لم يكن يزيد إيراد أكبر عائلة فى الحارة عن ثلاثة جنيهات.

وتأزمت الأمور بين سيد وفؤاد، فقد كان يغيظ سيد أن يمر فؤاد بعجلته جيئة وذهابا فى الحارة. يدق أجراسها ويكاد يدوس الأطفال، ويعطل ألعابهم ويتلفت ذات اليمين وذات اليسار منتفخًا، مزهوًا، ملمع الرأس.

حتى أطة ذاتها كانت تقف مبهورة، مفتوحة الفم.. بينما سيد لا يستطيع أن يستأجر عجلة. فأنى له ذلك ومصروفه لا يتجاوز مليما فى اليوم وقد لا يحصل على هذا المليم إلا بشق الأنفس.

وكان سيد لا يفهم أبداً لماذا يرفض فؤاد أن يعيره عجلته ولو مرة واحدة. كان الحسينى مثلا ابن صاحبة البيت يملك طيارة من الورق والبوص يطيرها فوق السطوح من أعلى برج الحمام. ولكنه رغم فارق السن. ماكان يتأخر أن يسمح لسيد بأن يمسك بها وهى طائرة، يجذبها تارة ويرخى لها العنان أخرى.. وكان لدقدق طوق من الحديد. يجرى به فى الشارع ولكنه كان لا يرفض أن يعيره لسيد بعض الوقت. وكانت أطة لا تحبس عنه شيئًا تملكه أو تشتريه. لقد كانت تخرج له الكرملة الليمون من فمها وتدسها فى فمه. أما فؤاد فكان لا يفرط فى شىء أبدا فإذا ما ألح عليه سيد أدار له ظهره وقال له «ماما أدتنى الحاجات دى عشانى أنا مش عشانك».

حتى لفظة ماما هذه لم يكن سيد يستسيغها، فالحارة كلها تقول أمى وأبوى... وخرج سيد فى شلة له، فقد أصبحت له شلة من جعلص وحمامة وحميدو ودقدق ثم حسن الذى لم يكن يتجاوز الخامسة. والتى كانت أم حسن المصرية ترجو سيد وتلح فى الرجاء أن يصحبه معه. ليريحها من شقاوته. وليخفف عنها بعض العناء.

خرج سيد وشلته متجاوز الحارة إلى الشارع. وكان الشارع يمثل حياة أخرى بالنسبة لسيد وجماعته. ففيه يجرى الترام، وكان اجتياز

الشارع والترام مقبل أو مدبر. مخاطرة وتسلية جريئة يندفعون إليها فى حماسة وهناك رأوا فؤاد وعجلته وقد أراحها بجانب الرصيف. بينما كان يصطاد العصافير بنبلته.

وكان سيد أشد ما يكون تلهفا إلى هذه النبلة. ولطالما ألح فى الرجاء أن تشترى له أمه نبلة، وأخذ سيد يتامل فؤاد وهو يشد الأستك فتنطلق الحصاة. فتخيب مرات. ولكنها تصيب الهدف آخر الأمر فيسقط عصفور صغير قد جرحت الحصاة جناحه.

وجرى سيد إلى العصفور يريد أن يلتقطه. فكان أن دفعه فؤاد دفعة أرسلت بسيد يتدحرج على الأرض. وهب سيد ليمسك بفؤاد من رباط رقبته وليشدها شداً عنيفاً. ورغم أن فؤاد كان يكبره بأعوام إلا أن ضربات سيد انهالت عليه فما تركته إلا صارخًا باكيًا متكوراً على الأرض. وقد جرح فمه جرحًا بليغًا وتلوثت ثيابه بالتراب والوحل والدم وولى سيد وعصابته خائفين مترقبين.

* * *

وسرى النبأ إلى الحارة كلها. واستولى عليها وجوم غريب فلم يسبق لفؤاد أن ضربه أحد أو جرحه مخلوق. وأخذت التخمينات تتولى. ماذا ياترى الست أم فؤاد صانعة؟

وجاء أبوه مبكرا على غير عادته. وما أن دخل الحارة حتى أطلت الست أم فؤاد ومعها ابنتها علية هانم من إحدى النوافذ، وامتلأت نوافذ

بيتها بالسيدات والخدم والأتباع. واحتشدت شبابيك الحارة وأسطحها بالنسوة يترقبن ماذا عساها صانعة وساد الجميع صمت عجيب.

وارتفع صوت الست أم فؤاد: اسمع يافندى انت. انت ياللى ماشى. ياللى اسمك حسنين.

وهنا فقط أدرك أبوه أنه هو المقصود فرفع رأسه فى دهشة، وخاطبته الست أم فؤاد من نافذة الطابق الثانى.

– بأى أنت مخلى ابنك متشرد وداير فى الشوارع يضرب ولاد الناس الطيبين ومش عارف تربيه. إذا كنت انت مش عارف تربيه (وهنا ارتفع صوتها عاليًا حادًا) أنا أخلى لك الحكومة تربيه. تربيه تمام – فاهم؟

ولم يفهم حسنين أفندى شيئا. وفغرفاه وتلفت حوله ينظر إن كان هو المعنى حقا بهذا الكلام.. وجاء صوت أم فؤاد حادًا قاطعًا:

– أنا بأقصدك انت يافندى. مش انت اللى عندك واد متشرد اسمه سيد؟ إزاى يتجرأ حتة ولد صعلوك زى ده يضرب ابنى فؤاد، ابن السيادة اللى ماخلفتش غيره فى الدنيا. يعجبك كده؟

– ونادت فؤاد. فجاء ملفوف الدماغ بكمية ضخمة من الشاش. لا يظهر خلالها إلاعيناه. وانفجر فؤاد بالبكاء:

– شايف؟ يعجبك كده.. وهنا اغرورقت عيناها بالدموع. ولكنها غالبتها قائلة: أنا كنت مصممة أروح القسم، وانت عارف مقامى عند الحكومة. وأخليهم يجرجروك أنت وابنك المتشرد. تباتوا على الأسفلت.

لكن قلت لنفسى ده برضـه حتـه موظف غلبـان وأبو عيـال. لكن دى أول مرة وآخر مرة. وقد أعذر من أنذر.. ولو حصل من الواد المتشرد ابنك حاجة تانية. ح تروح أنت وهو فى داهية.

ثم أغلقت الشباك فى عنف. وأغلق معها الأتباع والذيول الشبابيك فى عنف مماثل. وأخذت الهمسات تتبادلها سكان الحارة:

وصاحت أم على مغضبة: إيه يعنى عيال ويضربوا بعض. يعنى ابنها معمول من الإزاز. ياختى: هى كل اللى عندها قرش تطلع فيها.

وكان سيد وأمه يرقبان كل شئ خلال الشيش. إذ لم تجرؤ أمه أن تفتح النافذة شأن بقية سكان الحارة.

ولم ير سيد أباه متضائلاً كما رآه ذاك اليوم. وهو المنفوش المنتفخ السريع الغضب الصارم الجاد. الذى يعنف لأقل مساس بكرامته. لقد اصفر وجهه ونسى أن يتنخم ويبصق كعادته. وسار إلى بيته مطأطئ الرأس وذيله بين رجليه.

وكان سيد قد أعد نفسه لعلقة حامية، وأخذ يفرك يديه ورجليه استعدادا لها، وأخذت أمه تجرى هنا وهناك، تخفى العصا الغليظة والأشياء الثقيلة. إذ كان أبوه - إذا غضب - لا يتأخر عن استخدام أى شئ فيضرب به.. واختبأ سيد فى أقصى ركن من دورة المياه وكانت ضربات قلبه تشتد، وهو يسمع حذاء أبيه يصعد السلم درجة درجة ويقترب شيئا فشيئا. ثم يركل الباب فى شدة، فيفتح الباب.

ودهش سيد عندما سمع صوت الأكف تنهال على وجه أمه المسكينة.

- العيب مش منه يامره. العيب منك انت. سايباه على حل شعره. عاوزه تطلعى ولادى زى ولاد عيلتك المسلمية المدلعين اللى مش نافعين مش كده. والذنب عليكى مش عليه.

وانهالت الصفعات والركلات. وارتفع صوت أمه ينشج:

- يا ظالم، ياضلالى، ياللى ماتخافش ربنا. بأى مش قادر على أم فؤاد تيجى تخلص منى. والنبى يارب فى سماك سلط لى الست أم فؤاد كل يوم تبهدله وتنتقم لى منه.

* * *

ولم يتناول أبوه طعامًا ذاك المساء وأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهابًا إلى ساعة متأخرة من الليل .

وأخذ يردد بصوت عال.

- هى فاكرة إيه فى نفسها. أنا لازم أكتب لها مذكرة فى القسم أنا لازم أعمل لها محضر تعدى بالقول والإشارة. لازم أجيب لها النيابة. أنا ح اعرف شغلى معاها.

.... ولم يكن هذا الكلام فى الواقع موجهًا إلى أحد.. وكان من المستحيل أن يبلغ الست أم فؤاد على كل حال.. فقد حرص أبوه قبلها على أن يغلق جيداً الشبابيك والأبواب القريبة من الحارة، والتى يمكن أن

يتسرب منها صوته إلى الست أم فؤاد. ولعل كلامه هذا كان للاستهلاك المحلى. حتى لا تسقط هيبته أمام زوجته أو أمام سكان المنزل وأمام أم الحسينى بشكل خاص.

(١٠)

تنمرت أم الحسينى بعد حادثة الست أم فؤاد. لقد كانت تريد حسنين افندى أن يخلى الشقة ليدخل فيها الحسينى ابنها. إذ كانت أجمل شقة فى منزلها. وكان الحسينى أعز من لديها فى الحياة فهو ابن المرحوم الغالى الذى أورثها هذا المنزل. ولم تكن أطة إلا ابنة رجل آخر عاشرها شهورا. وطلقها قبل أن يرى ابنته!

لقد كانت أم الحسينى مستعدة أن تحلف أغلظ الأيمان كاذبة حانثة أما إذا حلفت بابنها الحسينى. أوبرأس ابنها. فهى لاشك صادقة.

وكانت أم الحسينى تتلهف على أن تزوج ابنها. فقد أشرف على السابعة عشرة. وقد اختارت له بنتًا كالقمر. وقد اقتصدت له حصيلته من إيراد المنزل. شهراً فشهرا. وعاماً بعد عام حتى اكتمل المهر.

وما كانت أم الحسينى لتجرؤ أن تطالب حسنين أفندى بإخلاء الشقة لولا حادثة أم فؤاد.. أين سطوته إذن؟ والنيابة التى يهدد بها؟ وهو لم يحرك ساكنًا. وها قد مضى شهر ثم شهر ولم تتحرك النيابة،

ولم تأت الحكومة. بل أكثر من هذا، ألم يرسل حسنين أفندى رسولاً إلى الست أم فؤاد يترضاها ويطلب له الإذن فى مقابلتها اما رفضت الست أم فؤاد فى ازدراء وقالت للرسول:

لما يحسن تربية ابنه، يبأى يطلب مقابلتى.

واندفعت أم الحسينى فى تنمرها، فجرأت لأول مرة على أن تسب أم سيد على مسمع من زوجها.

وكاد سيد يصعق عندما ارتفع صوت أم الحسينى عاليًا، وقد اقتربت من المنور خصيصًا ليبلغ الصوت آذان أبيه واضحًا قال أيه مسلمية، وبنت الحاج مسلم، طظ يا حج مسلم. قال إية جدها ماكنش يأكل لوحده، آل كان يحط السفرة فى المشى واللى رايح واللى جاى لازم يقعد يأكل. يا ختى على الفشر.. كان امال يشوف لك سكن غير ده. أد المقام يا مسلميه! كان إيه اللى زنقك على حارة أم الحسينى وبيت أم الحسينى.. كان يدى لجوزك جنيه ولا اتنين فى الشهر، يدفعهم فى سكن لك فى محرم بك ولا الرمل... بأى لى شهرين وأنا أقول له: عاوزه أجوزالحسينى، ده أنا ما عنديش غيره. ونفسى أشوف أولاده قبل ما أموت وهو يقول: لا ويهوش. أنا ح أدفع الأجرة فى خزينة المحكمة. أنا مش عارفة إيه أمال كان يتشطر على الست أم فؤاد اللى بهدلته قدام الحارة كلها، وخلت اللى ما يشترى يتفرج.

.. وتَطَّلع سيد إلى وجه أبيه. فلم يجد فيه قطرة من الدم. لقد غاض لونه تماما. وأخذ يتشمم من أنفه أنفاسًا متقطعة بصوت عال ويتمتم: والله عال ياأم الحسينى. طيب ياأم الحسينى.

ثم ينظر إلى أمه شذرا «كله من المره دى. كله منك ياست حفيظة. خلتينى ملطشة للى يسوى واللى مايسواش. ماتبطليش كلام ورغى، جدى ومش جدى. ومسلمية وزفت».

* * *

وجاءته أطة فى اليوم التالى والدموع فى عينيها..

– ح تعزلوا ياسيد؟

ولصقت به ولصق بها ووضعت خدها على خده: أنا مش عاوزاك تعزل.

– أبقى أجى لك يأطة.

– لا خايفة تنسانى.

– أنا ح أعرفك بيتنا الجديد. ونبقى نشوف بعض.

ولكن حادثًا أنسى أم الحسينى أمر إخلاء الشقة وأمر زواج ابنها. وأنسى أباه إهانة أم الحسينى البالغة.

كانت المدارس قد فتحت. وكان الزمن هو الأسبوع الأول من العام الدراسى سنة ١٩٢٣. وقامت المظاهرات وأضرب الطلبة وعم الإضراب حتى تناول المدارس الابتدائية. وفى صباح يوم جاءت جموع من كبار الطلبة، وغزت مدرسة سيد وفتحت بابها عنوة رغم أنف البواب والفراشين مجتمعين. وأخذت الجموع تصيح بشىء لم يفهمه سيد. ليسقط بروت. ليحيى سعد.

وانطلقت المظاهرة.. لم يفرح سيد قط كما فرح يومها. لقد كانت حصة خاطر أفندى وما كان أبغض خاطر أفندى إلى قلب سيد. وأخذ سيد يثب فرحًا يندفع فإذا به فى مقدمة المظاهرة - يبطئ فإذا به وسط الجموع المحتشدة وهو ممسك بيد أخيه أحمد. وكان أحمد خائفا يرتعش يريد أن يروح البيت إذا ما عسى أن يقول أبوه؟ ولم يفهم سيد ماذا حدث فجأة. لقد أخذث الجموع تتفرق فى ذعر، وأخذ التلاميذ يجرون هنا وهناك صارخين.. وصك أذن سيد دوى طلقات فصرخات، وإذا برجل لم يكن يبعد عنه بأكثر من خطوات. يسقط على الأرض يتلوى صارخًا.. وأصاب سيد الخوف كما لم يصبه من قبل وانطلق وهو ممسك بيد أحمد إلى الحارات المجاورة يختبئ مع المختبئين وذهب إلى فرن ازدحم فيه أناس قد أغلقوا دونهم الباب.

ومضى بعض ساعة، خيِّل إلى سيد أنها ساعات.. طلقات سريعة. صراخ ثم صمت ثم طلقة، وأرجل تجرى ثم صمت. وجاءهم البشير أن الحال قد هدأت وأن الإنجليز قد ذهبوا.

وخرج سيد من مخبئه حذرًا متلصصًا واستبد به حب الاستطلاع، فأراد أن يعود إلى الشارع ليرى ماذا حدث للرجل. ولكن أخاه أحمد: قد استمر يبكى. تعلق به ما يفلته أبدًا. وأخذا يسلكان فى طريقهما إلى البيت حوارى وأزقة ملتوية، متجنبين الشوارع العمومية، التى كان الإنجليز قد احتلوها بمدافعهم الرشاشة.

وكان سيد يجرى ويشد وراءه أخاه ويتطلع في شغف إلى أن يرى أطة فيقص عليها هذه الحوادث العظام.

ولكنه لم يجد أطة التى يعرفها. إنما وجد مخلوقًا آخر. اتشحت بالسواد ولفت رقبتها بمنديل أسود، وانتفخت وجنتاها من كثر اللطم. وتقرحت جفونها من شدة البكاء.

وناداها فزعًا: أطة !

وأجابته وصوتها قد بح من كثرة الصراخ: خالى.. مات

لقد أصابته رصاصة قاتلة في مظاهرات الصباح. وانقلب البيت كله. بل الحارة جميعها إلى مناحة.. أم الحسينى وقد صبغت وجهها بالنيلة. وأهالت على رأسها التراب. أم على الجزارة وقد تمنطقت بسكين حاد يلمع نصله. لعلها تنفرد بانجليزى فتذبحه كما تذبح العجل الوقيع.. أم حسن المصرية تكشف عن رأسها وتدعو الله أن يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر. أم سيد تؤكد لأم حسن المصرية أن كل ده سخط من ربنا ينزله على العباد. عشان مش متبعين أوامره وبيخالفوه، أبوه وقد نسى أن يتشاجر مع أمه خلال شهر بأكمله. الست أم فؤاد وقد تنازلت لأول مرة في حياتها فشرفت بيت أم الحسينى معزية.

ثم الصوات واللطم والعويل. والنادبات لا يندبن الميت فحسب. وإنما يندبن الأموات والأحياء جميعا.

سيد رجل له سطوته فى البلدة. ولا شك أنه سيصله بشكل أو آخر أمر هذه الزيارة. مما يعزز مركز خليل بك عند عائلة المسلمية.

ولهذا أهتم خليل بك. ولعلها لأول مرة فى حياته بأمر أم سيد وألح فى السؤال عنها. أين تسكن؟ وكيف يزورها؟

* * *

وزف حسنين أفندى البشرى إلى زوجته.. أن خليل بك قد جاءه بنفسه وشخصه يسلم عليه فى مكتبه. ويبدى رغبته فى رؤية ابنة أخيه: «ياسلام الناس دول متواضعين ! شوفى برضه أولاد الأصول ! الراجل ييجى بنفسه ويسأل عنى!»

وانقلبت شقة أم سيد إلى مركز نشاط ضخم. واستدان أبو سيد لأول مرة فى حياته. أربعة جنيهات كاملة من أم الحسينى. وبيض على نفقته الشقة وبير السلم. وأصلح الدرابزين المخلع.

وبلغ الخبر الحارة بأجمعها. ولم تتأخر جارة واحدة فى أن تعير أم سيد أنفس ما عندها. أكوابًا وصحونًا ومائدة للطعام، وغطاء للمائدة زاهيًا مزركشا. بل أن الست أم فؤاد وقد تسرب إليها النبأ، رضيت أن تغير أم سيد طقم شاى بأسره وستة كراسى جلدية للمائدة. منبهة إلى شدة المحافظة عليها. فهى من مخلفات المرحوم.

وجاءت الجارات جميعهن. يساعدن أم سيد يوم الطبيخ. ولم يكن يوما واحدًا وإنما كان ثلاثة أيام بلياليها ! وكانت أطة أنشط هؤلاء

الجارات طرا. كإنما الأمر يعنيها هى قبل أن يعنى الآخرين..كان لا يعجبها شئ. ولا تستريح لشئ وتنتقد كل شىء. وكانت تنطلق هى وسيد إلى سوق البياضة فى باب سدرة. ويعودان محملين.. وكانت أمها تصرخ يامقصوفة الرقبة. هو أنا أدور عليكى مالقكيش أبدا... ولكن عبثًا ما كانت تصرخ. فما أكثر الأشياء التى تحتاجها أم سيد. لقد كانت تعد عشرة أصناف كاملة.. نعم فقد كان جدها - كما أخذت تحكى لجاراتها - يستخدم طباخين من بندر المنصورة يقومون بإعداد الطعام للضيوف وكان ضيوف جدها من علية القوم وأصحاب الأمر النافذ. البك المأمور. والباشا المدير.. والباشا البغدادلى.. ومن ثم كانت بنات المسلمية كلهن يجدن الطبخ طبخ البنادر مش عك الفلاحين.

ولا يذكر سيد أن رأى أمه سعيدة كما رآهـا إذ ذاك. كانت الدنيا لا تكاد تسعها. رغم العرق المتصبب والعمل المنهك المتواصل. لقد غفرت لكل من ساءها، حتى أم حبشى قد دعتها بنفسها لتشاركها أمرها.. ولا يذكر سيد أن رأى أمه وأباه على مثل هذا الوفاق..كان أبوه هو الذى يتقرب إليها ويناديها بأم سيد بدلاً من حفيظة.. وكان شغلهما الشاغل سيرة خليل بك. أبوه يؤكد أنه رجل شهم همام أحسن من فى عائلتها. وأنه لا شك نافعهما.. من يدرى؟ فقد يسعى إلى ترقيته. أو قد يدخل ابنه أحمد فى المدارس الثانوية بالمجانية الكاملة.. وترد أمه مسرورة باسمة. النافع ربنا.. ويهز أبو سيد رأسه ويتشمم من أنفه: ولكنه مسبب الأسباب.. الأمل خير.

وجاء اليوم المشهود.. ولبست أم سيد أفخر ثيابها.. بل استعارت من الست أم فؤاد عقدا وحلقا بدلايات.. ولبس أحمد بذلته.. ولبس سيد طربوشا نظيفا مكويا لأول مرة فى حياته.. حبكته له أطة على رأسه.. واستبدل أبوه بالجلابية والطاقية والشبشب بذلة مكوية استخدم البنزين لإزالة ما عليها من بقع.

وأخيرا دوى صوت البوق.. بوق العربة.. عربة كبيرة نزل منها خليل بك وامرأته وبنته الصغيرة.. وكانت الزوجة لا ترتدى الملاءة شأن نساء الحارة ولا اليشمك والحبرة شأن الست أم فؤاد وإنما كانت تكتفى بفستان قصير الأكمام يكشف عن ذراع بضة ناعمة بيضاء.. ولذا سرعان ما أطلقت عليها الحارة: الخواجاية..

وامتلأت الأسطح والشبابيك. واكتظت الحارة بالأطفال والصبيان.. يحاول الأسطى السائق عبثا أن يدفعهم عن العربة حتى لا يركبوا الرفرف بأرجلهم العارية الملوثة بالوحل.. وحتى لا يلمسوا الفوانيس اللامعة.. ولا يعبثوا بالبوق.

ولم تكن هذه المخلوقات غريبة على الحارة فحسب.. وإنما كانت غريبة على سيد أيضا.. لقد كانت نبيلة هانم. كما عرف اسمها فيما بعد. لا تتكلم العربية.. فقد كانت نصف مصرية.. ولا تكاد تنطلق عبارة إلا دست فيها بكلمة أجنبية.. وكانت تضحك ضحكات عصبية. متلفتة هنا وهناك.. ثم لاتفتأ تسأل زوجها كلما صدرت عن أم سيد أو أبى سيد

عبارة ترحيب: أيه؟.. بيقول أيه؟.. بتقول أية؟.. فإذا ما شرح لها زوجها برطانة أجنبية. هزت رأسها قالت: مرسى.. مرسى..

وكان أحمد يجلس وقورا مؤدبا.. أما سيد فقد أخذ يقترب من الزائرين فى سكون ثم حاول أن يتحسس بيده فستان نبيلة هانم.. فستانها الحريرى الناعم الهفاف لم ير مثله قط.. ولكن زغرة من أمه وشخطة من أبيه ردته بعيدا.. غير أن نبيلة هانم أصرت على أن يقترب منها سيد وأن تمسح رأسه بيدها المعطرة. التى تلمع أصابعها بخواتم من الماس.. ثم تسأل عن اسمة فيسارع أبوه: ده خدامك سيد..

– بيروح المدرسة؟..أمال يافندم.. ده فى سنة تانية ابتدائى.. بس مش شاطر زى أحمد.. أحمد مقدم الابتدائية السنة دى.. ومؤدب ومجتهد.. قوم سلم على الهانم يا أحمد.. وأسرع أحمد إلى البك وقبل يده فى احترام شديد.. فقال خليل بك وهو يربت على رأس أحمد: عال.. عال لازم تكمل تعليمه ياحسنين أفندى.

– أهو البركة فيك ياسعادة البك.. إنت عارف البير وغطاه.. واحنا ناس على أد حالنا.. والمسألة على الله وعليك أنك تساعدنى وتدخله ثانوى مجانا..

– إن شاء الله. إن شاء الله.

وتدخلت الهانم. فقد ضايقها أن يهملوا أثيرها. سيد.

- وبكره ده.. اسمك أيه؟ وقال لها سيد هامسا: اسمى سيد.. واستأنفت الهانم: سيد. بكره يكبر ونجوزه أميرة. مش كده أميرة شيرى.

وزمت أميرة شفتيها. وزوت ما بين حاجبيها. وصعدت ببصرها فى سيد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وهزت كتفا لها مستنكرة ولكنها لم تقل شيئا.

وانفلت سيد من بين يدى نبيلة هانم ولم يعد بعدها إلى الحجرة أبدًا.

ولم تكن نبيلة هانم تستطيع أن تستقر لحظة واحدة. لقد كانت تهب واقفة لتجلس. وتجلس لتهب واقفة. وتتجه إلى الشباك لتعود. ثم لا تنقطع وهى جالسة عن هز ساقها.. ثم فجأة دون مقدمات تطل فى ساعتها وتصيح بزوجها: أه شيرى. نسينا راندى فو بتاع الباشا لازم أنزل.

.. ولكن الطعام. المائدة، الكراسى، الجلدية، الملاعق الفضية. عشرة أصناف طبختها أم سيد.

وقال أبو سيد:

- هو احنا يا هانم مش أد المقام ولا أيه؟

ولكن لم يكن ثمة فائدة. لقد أصرت على النزول. واغرورقت عينا أم سيد بالدموع طيب والنبى على قلبك تدوقى الألماظية دى. ح تاكلى صوابعك وراها.

وذاقت نبيلة هانم بعد إلحاح من زوجها فى رطانة أجنبية ملعقة واحدة. ثم هرعت إلى السلم. وأسرع خليل بك وراءها. وكأنه نسى شيئًا. فكر راجعا وهو يلهث ليدس بخمسة جنيهات فى يد أم سيد، ثم ليهرول مسرعا وراء امرأته. لقد نسى أن يصافح أبا سيد.

وسالت الدموع على خد أم سيد.

ولكن اعتبار حسنين أفندى - رغم هذا - رد إليه بعد تلك الزيارة. فلم تجرؤ أم الحسينى على مطالبته بإخلاء الشقة. واكتفت بأن تشغل هى وزوجها وابنتها أطة حجرة واحدة فوق السطوح. تاركة شقتها هى للحسينى وعروسه.

وتناست الست أم فؤاد مسألة اعتداء سيد على ابنها. وتكرمت فدعت لأول مرة. أم سيد لتشرب عندها القهوة.

(١٢)

ازينت حارة أم الحسينى وتبرجت: الأعلام الخضراء والحمراء. الثريات البنفسجية والزرقاء. وقوس نصر من سعف النخل يزين واجهة البيت. وأرض مفروشة بالرمال. وكلوبات ترسل فى الحارة المظلمة عادة نورا أبيض ساطعا ومزيكة المعلم قطشة.

ورضى أبو سيد أن تستعمل أم الحسينى شقته لاستقبال المدعوين من الرجال. بينما استخدم سطح المنزل للنساء. واجتمع معظم رجال

بشيء من المنزول. مما أفقدها الوعى، فاستطاع بذلك أن ينالها..
وكيف أحبته من بعدها. وأنجبت له. والحمد الله خمسة من الذكور
فى خمس سنوات.

ويخرج من هذا كله بصدق نظريته أن تتزوجها صغيرة. فتعيش
معك على الأيام. ياواخد الصغير ياحرامى السوق، لا يدرى سيد لماذا
أعجب بالمعلم حمودة ليلتها كل الإعجاب. ولماذا تعلقت عيناه بشفتيه.
فلا تغادرهما لفظة إلا حفرت أخاديد عميقة فى مخ الغلام الصغير.

كما لا يدرى سيد ما الذى جر القوم إلى حديث السياسة. فقد كان
سعد فى الحكم أول وزارة له.. وكان الفرح قد عم مصر. وكانت مصر
كلها تنتظر كل شيء من سعد.

وقال أبوه وهو يتشمم من أنفه فى قوة:

– الأمل خير. بيقولوا سعد ح يزود مهايا الموظفين.

وقال زوج أم الحسينى:

– والله أنا سمعت إن سعد ح يدفع تعويض لأهالى الجماعة اللى
ماتوا فى المظاهرات كمان..

وقاطعه المعلم حمودة ضاحكا:

– والله عال ياجماعة.. واحنا الصنايعية نخرج من المولد بلا حمص.

– وقال أبوه: لازم برضه يعمل لكم حاجة.

وأجابه حمودة ضاحكا: ايه يعنى؟.. ح يجيب لى زباين؟.. ياعم: إحنا بناكل من عرق الجبين طول عمرنا و.. وقاطعه أحد الحاضرين:

– ويا ترى الإنجليز ح يطلعوا؟..

وقال حمودة: أيوه فى لهجة العالم ببواطن الأمور.

– دول بيعملو حساب سعد تمام. إزاى ما يطلعوش؟..

وهز حمودة رأسه فى أناة:

– والله يا حسنين أفندى. دول ولاد كلب مع عدم المؤاخذة.

ويجيبه حسنين أفندى:

– لا. خلى بالك. ده سعد سياسى كبير. كام كلمة كويسة. يضحك عليهم ويخرجهم من البلد.

وارتفعت ضحكة حمودة:

– بقى ياحسنين أفندى مع عدم المؤاخذة. أنا راجل وشى كالح شوية، ومعايه سكاكين وطبنجة ورحت استوليت على بيت بالقوة. مع عدم المؤاخذة وقعدت فيه. مبسوط أربعة وعشرين قراط تفتكر يعنى كلمتين طيبين وشوية أونطه يطلعونى منه؟..

ولم يرد سيد بماذا أجاب أبوه. فقد نادته أمه لبعض حاجة له. ونسى سيد فوق السطوح كل شيء. سعد والإنجليز وعم حموده.. فقد امتلأ السطوح بالنسوة من الحارة ومن أقارب العروسين مدعوات

وغير مدعوات. ولم يكن هناك نسوة فحسب. وإنما كان هناك أيضا البنات والأطفال بل والرضع أيضا. وكانت العروس تجلس فى الكوشة. وأمامها ترقص فتحية العالمة شبه عارية بأسنانها الذهبية. بالأصباغ القوية على وجهها.

وكان جزء من النسوة قد لهى عن الفرح بأسرارهن الخاصة. وجزء آخر ينتقد كل شيء ويسخر من كل شيء أما قريبات العروسين فكن مشغولات. نازلات صاعدات وحائرات لاعنات ساخطات. مبتسمات. فى الوقت الذى لا تنقطع فيه زغاريدهن !...

وحشر سيد نفسه بين النسوة، واقتربت منه الراقصة حتى كاد يشم رائحة اللحم الممزوج بالروائح العطرية الرخيصة والعرق. وقد بعثت انتفاضاتها فى نفسه مزيجا من الأحاسيس. فيه اشتهاء لشيء غامض وفيه خجل وفيه بعض القلق.

وصاحت به أم حبشى:

- ياواد إنت حاشر نفسك ليه بين النسوان؟.. الواد ياختى كبر وبأى قارح.

واحمر وجه سيد. وكاد أن ينسحب لولا أن أم حسن المصرية صاحت. ماتسيبه إنت مالك وماله؟.. خليه يتفرج. والنبى لا أرقص له أنا كمان..

وأخرجت أم حسن ثديها من فم رضيعها وناولت الرضيع جارة لها ثم لفت فوطة حول وسطها ورقصت رقصا مثيرا أرخت فيه أهدابها وغطت عينيها بذراعيها. وأقبل النسوة ضاحكات. يشتركن جميعا فى ضبط الإيقاع.. وأخذت صيحاتهن تعلو إعجابا والنبى كمان يام حسن..

وقالت أم حبشى ضاحكة: أتارى أبو حسن: بيموت فيكى يامضروبة وأجابتها أم حسن: جاتك نيله يام حبشى والنبى ده كان مجوزنى عيلة صغيرة ما أعرف حاجة يدويك أد أطة.

والتفت سيد حيث أطه. فقد كان يبحث عنها فلا يجدها. لقد افتقدها أسبوعا بأكمله وهى مشغولة عنه. ولم تكن أطه ذاك المساء البنت الغلامية التى تشاكس الباعة وتتشاجر مع الصبيان وإنما كانت ترتدى ثوبا حريريا يكشف عن ذراعيها. وكانت قد تحايلت فاستطاعت أن تلمس خديها وشفتيها بشىء من الروج سرقته. وكانت قد شبكت وردة حمراء فى شعرها الأكرت المدهون بطبقة سمكية من البريانتين.

ومرة أخرى نسى سيد كل شىء.. إلا أطة. وأخذ يلازمها فينزلان السلم معا ويصعدانه معاً.

وهنا فى ركن من الحوش مظلم بعض الشىء. مهجور بعض الشىء. أمسك بيدها وأمسكت بيديه. ونظرت إليه فى دلال وحنان ونظر إليها فى حب وإعجاب. كانت أحاسيس مختلفة قد اختلطت فى ذهنه فشوشته. نكات أبى حسن المكشوفة. العالمة ترقص شبه عارية. أم حسن ورقصها. أم حبشى ووصفها له بالقارح..

وأخذ يشم الوردة فى رأس أطة ممتزجة برائحة البريانتين.

وقالت له خجلة فى صوت متكسر عاجباك ياسيد..

وتلاقت الشفاه لأول مرة فى حياتهما كانت شفتاها حارة غليظة ممتلئة. تعبث بشفتيه فى جرأة. فأخذ يضغط عليهما بفمه. لقد كان لهذه القبلة طعم الشهد الذى ذاقه سيد مرة ممزوجا بالزبد الصابح..

(١٣)

كان يوما باردا من أيام أمشير، الرياح تلفح الوجوه فى قسوة والأيدى والوجوه مزرقة. ولم يكن سيد يومها سعيدا.

لقد قضى بالأمس ليلة سوداء. استمر فيها الشجار بين أمه وأبيه معظم الليل. وكان سيد فوق هذا محزونا بائسا.. فأطة غاضبة منه مقاطعة له ولم يكن سيد قد ارتكب شيئا يستحق – فى رأيه – هذه المقاطعة. فقد اشترى لأم حبشى بعض حاجة لها. وأرادت أن تكافئه فأعطته ملبسة. أبت إلا أن تضعها بنفسها بين شفتيه قائلة دايما يامضروب شفايفك حمر.. ثم فاجأته بقبلة. ورأتها أطة فكان الخصام وكانت المقاطعة. وأقسم لها أنه لم يصنع شيئا. وإنها أم حبشى التى أرادت به هذا الأمر ولكن أطة ردت غاضبة:

– أنت عارف أنها بتاعة رجالة! ليه بتروح عندها؟

ولم يجد اعتذاره، وترضيه لها.. ومن ثم كان سيد محزونا بائسا.....
وكانت حصة خاطر أفندى أول حصة هذا اليوم، وكان يلذ لخاطر أفندى أن يختارها فى هذا البرد القارس لتكون حصة العذاب كما يسميها.
وحصة الشوى كما يسميها التلاميذ:

سيد حسنين.. ستة من عشرة.. وقذف خاطر أفندى بالكراسة فتطايرت فى الهواء ثم قال فى هدوء:

– يبأى لنا كام عندك ياسى سيد..أربعة فى اثنين يبقوا ثمان عصى مدإيدك، قوام.

ومد سيد أصابعه المضمومة مره فاثنتين ولكن الضرب آلمه أشد إيلام فتردد فى المرة الثالثة وافلتت الضربة.

وجاء صوت خاطر أفندى هادئا عنيدا ملحا عد من تانى.

وتحمل سيد ضربة فاثنتين فثلاثا. ولكنه لم يطق فأفلت فى الرابعة وعاد صوت خاطر أفندى هادئا عنيدا ملحا.

– برضه من الأول ياسى سيد ولكن سيد لم يمد يده. وأخذت المسطرة ترتفع وتنخفض بحركة آلية رتيبة لتهبط على كتفه وذراعه ورقبته وارتفع صوت خاطر أفندى..

– اخلص قوام، ورانا غيرك، مش فاضيين.

ولكن سيد كان قد تحجرت الدموع فى عينه. وأخذ ينظر إلى خاطر أفندى محملقا متحديا: لامش مادد إيدى.

وارتفع صوت خاطر أفندى: حسابنا كام من الأصل. ثمانية وثمانية كمان عشان قلة الأدب يبقوا ستاشر عصاية.

وارتفعت المسطرة لتنهال مرة أخرى فى حركة رتيبة آلية على أى جزء من جسم سيد ومد سيد يده هذه المرة. ولكن لينتزع المسطرة من يد خاطر أفندى فى حركة سريعة عصبية وليكسرها نصفين. وليلقى بها إلى الأرض. وصعق خاطر أفندى. فلم يسبق لتلميذ أن فعل مثل هذا قط.. ونسى التلاميذ ما هو فيه من بكاء وخوف واتسعت أحداقهم دهشة.

وتحرك خاطر أفندى من كرسيه فى بطء. وهبط الاستزادة. ثم تقدم نحو سيد فى هدوء. ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة. وانهال خاطر افندى بالركل واللكم. ودارت رأس سيد فلم يدر إلا وأسنانه تنهش يد خاطر أفندى نهشا.

ولم يعد سيد يحس بشىء ولا يفهم شيئا.. لماذا أخذ خاطر افندى يصرخ متأوها..؟

لماذا حدث كل هذا الهرج بين التلاميذ لماذا أقبل الفراشون والضباط والناظر؟ لماذا اجتمعوا حوله؟ لماذا يقبضون على أنفه وفكيه ليخلصوا يد خاطر افندى من فمه؟

وأحاط بسيد سكون عجيب من بعدها. سكون موحش مشحون لا يسأله فيه أحد شيئا. ولا يضربه الناظر ولا يمسه عبد الحميد أفندى. لقد اكتفوا بأن يقف ووجهه إلى الحائط تحت ساعة المدرسة. لا يقربه أحد ولا يكلمه مخلوق. يتطلع إليه التلاميذ من بعيد فى دهشة. ويتهامسون بأشياء لا تبلغ أذنيه. ثم ينصرفون.

واستمر نفس الصمت الموحش المشحون فى بيته. وأبوه لا يكلمه ولا يضربه ولا ينظر إليه. وسيد يلزم حجرته لا يؤاكل العائلة ولا تؤاكله. وأمه تأتى له بالطعام فى غيبة أبيه وتمصمص بشفتيها حزينة أسية:

– ده عين وصابتك يابنى ثم تأتى بالفاسوخ والشبه. وتبخره فى الوقت الذى تشك قطعة من الورق بإبرة وهى تتمتم:

– من عين اللى نضرتك وما صلتش على النبى. من عين أم حبشى. من عين أم الحسينى.

ثم تأخذ هى وأم حسن المصرية تفحصان الشبه المحروقة.

– والنبى أقطع إيدى. إن ماكنش أم حبشى. شوفى متخلقة خلقتها أزاى؟ آدى كعبها المبروم. وعينيها الواسعة. وش الخراب.

– والنبى هاتى لى منها شعرتين ولا حتة من هدومها نبخر بيهم الواد..

ولكن كل هذا لا يجدى. لقد رفتوه من المدرسة. ومضى أسبوع وأسبوع وأبوه تحفى قدماه. فى التوسط لدى هذا أو ذاك لإرجاع ابنه ولكنهم اشترطوا أن يقيد سيد بالمصروفات الكاملة. وأن يؤديها أبوه مرة واحدة.. وكان من المستحيل على أبيه أن يدفع ستة جنيهات دفعة واحدة.

واعتزم أبوه أن يلقن سيد درسا فأمره ذات صباح أن يلبس. وأحب سيد أن يلبس بذلته ولكن أباه قال ساخرا بدلة إيه. مالهاش لازمه. ألبس الجلابية.. وأحب سيد أن يلبس الحذاء فرده أبوه: على إيه الجزمة. ده كان زمان وجبر. الجزمة والبدلة والطربوش دول بتوع الأفندية. وأنت مش عاوز تبأى أفندى.

وقال له أبوه وهما فى الطريق:

- بكرة ياما تشوف. وبكره ياما تندم على أيام المدرسة. وعلى خاطر أفندى اللى ما كانش عاجبك. ورايح لى حضرتك تعض إيده.

وبلغا دكان المعلم حموده وقال أبوه:

- أهو جبته لك. وزى ما وصيتك امبارح يامعلم حموده. بالشاكوش على دماغه على طول.. واتصرف

وكأنى بسيد قد استيقظ من حلم مزعج مخيف. وكأن العواطف الحبيسة المتضاربة التى استمرت تعتمل فى صدره أسبوعين بأسرهما. قد انفجرت كلها مرة واحدة عن بكاء قاس حاد مرير.. أخذ يهتز له كل كيانى لقد أدرك سيد فى هذه الساعة أنه قد هبط السلم الاجتماعى من مرتبة التلاميذ إلى مرتبة صبيان النجارين والحدادين والحلاقين. من القلة المرموقة إلى الكثرة التى كانت تمتلئ بهم الحارة من الطربوش والحذاء إلى الطاقية والحفاء.. ترى ماذا تقول أطة؟ أتراها تنصرف عنه ولا تعود تحبه؟

وتركه المعلم حمودة يبكى ما شاء له البكاء. واستمر يمسح بالفارة وينشر بالمنشار ويدق بالقدوم. ويعلم بالقلم الرصاص الذى لا يفارق أذنه قط. وكأن هذا البكاء لا يعنيه. وكأن سيد ليس فى الدكانه.

ثم كف المعلم حمودة فجأة عن عمله وأتى بقطعة من الحلاوة وشىء من الجبن والزيتون. وفرش جرنالا قديما على دكه..

- سيد ما تيجى تأكل.

ولكن سيد لم يتحرك من مكانه وأخذ المعلم حمودة يتكلم وهو يلفظ نوى الزيتون.

- إنت زعلان علشان المدرسة. وإيه يعنى المدارس؟ يعنى بيعلموكم فيها إيه؟ شوية كلام فارغ. وبيطلعو منها إيه؟ حتة كاتب لا هنا ولا هناك. يفضل طول عمره فى الحكومة بتلاتة أربعة جنيه - الواحد الصنايعى منا فى دقة واحدة بيكسب أده عشر مرات.. سيد تعال ولا يهمك. قوم ماتزعلش ولا تعيط. أنت فاكرنى ح اسمع كلام أبوك؟ ده أنا بس باخده على أد عقله. وبكره تنبسط معاى أربعة وعشرين قيراط. وتبأى صنايعى أد الدنيا.. قوم ياشيخ كل لك لقمة.

.. ولا يدرى سيد ماذا كان فى صوت حمـوده. جعله يقوم بل يجلس بجانبه فى صمت. بل وتناول قطعـة من الجبن. وأخذ يلفظ النوى كما يلفظه حمودة.

واستمـر الصـوت هـادئًا عميقًا عريضًا - شـوف يا سـيد. إحنا الصنايعية. إحنا كل حاجة بص كده للبيوت دى مين اللى يبنيها؟ إحنا الصنايعية. شوف الهدوم اللى كل الناس بتلبسها مين اللى بينسجها ويغزلها؟ برضـه إحنا الصنـايعية.. لا تقولى بتوع مدارس ولا أفنـدية ولا باشوات والا.... إحنا الصنايعية إحنا كل حاجة. إحنا وبس.

وأشـرقت الابتسـامة على وجه سيد. ومضى المعلم حمـودة فى صمت ينجر ويدق ويخطط بقلمه الرصاص ثم قال فجأة وأسنانه الذهبية تلمع ضاحكة.

- سيد هات كوز الغرا..

من الجامعة إلى الوظيفة

استقبلوه فاحصين متأملين كأنما يجب أن يكون فى خلقته شىء عجيب، أو يكون رأسه مركب على غير عهدهم بالرؤوس، مادام يحمل شهادة عالية، وما دام هو أول زميل يرونه من أصحاب هذه الشهادات.

واستقبلهم فى تردد وجل، يحاول أن يخفيه فتخونه خطاه، يود لو تكون خطى ثابتة وتأبى إلا أن تضطرب. وأشاروا إليه أن تفضل، فاطمأن بعض الشىء إلا أنه لم يصدق عينيه، فقد كان يحسب الوظيفة كل شىء إلا القعود إلى مكتب قد تأكلت حواشيه وغطته بقع من المداد حريصة على ألا يفلت منه جزء. وقد كان يتصور مكان الوظيفة كل مايذهب إليه الخيال إلا أن تكون غرفة يتكدس فيها العشرات من الموظفين، وتنتشر فوق مناضدها وفى أركانها وعلى أرضها وحول جدرانها أكداس من الورق فى غير ما أناقة ولا ترتيب. ويتخذ إلى مكان السجلات فيها سلم لابد من الصعود فوق درجة إذا استبدل سجل بسجل.

وقطع عليه ذهوله صوت أجش يهتف باسمه، فذهب إليه فإذا به رئيسه المباشر، شاب ضامر الجسم أصفر اللون، تنبت شعيرات متفرقة

فى ذقنه وتنسى أن تنبت فى بقية وجهه، فهى لحية وهى ليست بلحية، له عينان غائمتان تطلان بلا معنى من وراء زجاجتين سميكتين.

وخاطبه:

- شرفت المصلحة. خذ هذا العمود اجمعه، وتلك الأرقام ارصدها، وذاك الكشف بيض صفحاته.

ويحمل هذه الأوراق جميعًا آفــلا إلى مكتبة فيناديه هذا الرئيس مرة أخرى:

- آه. نسيت. وهذه الاستمارات أيضا أرجو ملء خاناتها.

ويقبل على هذا العمل إذا ما كان يستطيع أن يصنع غيره. وبعد قليل يفاجئه رئيسه فيسأله «ماذا انجز وماذا لم ينجز» - ويعطيه الذى أنجزه دون أن يجيب فيتناوله هذا بالتقليب والفحص عابسًا ثم يتمتم شيئًا بين أسنانه ثم يكر راجعًا إلى مكانه.

ويأخذه العجب ولكن يشتد عجبه عندما يتسرب الموظفون فرادى إلى مكان رئيسه المباشر يطلون على الأوراق التى سود بياضها زميلهم الجديد خريج الجامعة كأنما يجب أن تكون كتابته تخطيطًا لم يروه من قبل، وكأنى بهم ينتظرون أن يكتب من تحت إلى فوق، أو يستحدث حدثًا فيكتب العربية من الشمال إلى اليمين، أو يركب الحروف تركيبًا جديدًا. ولما خاب فألهم هزوا رؤوسهم وبدأوا يتهامسون حتى لا تبلغه أصواتهم. فوصل إليه تهامسهم حاذًا جليًا من حيث أرادوا أو لم يريدوا، وقد كان ما يتهامسون به أبعد شىء عن الرضا وأقرب شىء إلى الاستهزاء.

وعهد به إلى جار له عن شمال يخبره بأسرار المصلحة يلقنه مبادىء العمل. وتلقى هذا أنباء مهمته بما يليق لها من الجد والاهتمام فاكتسب وجهه عند ذلك هيئة الأستاذ نحو تلميذ عنيد. وبان الحزم حول شفتيه عندما خرجت الكلمات تتحدر من فيه فى لهجة آمرة:

- خذ. أكتب ردا لهذا الخطاب.

وحمل إليه الرد بعد قليل. فتناوله هذا بالتهذيب ثم رجاه أن يعاود كتابته فعاد إليه بعد قليل فواجهه:

- ما هذا؟ ما هكذا تكتب الردود، يجب كتابتها على استمارة أتشــرف.

وأثار هذا القول بعض مكامن السخط من نفسه فقال:

- وما منعك أن تنبئنى بهذا من قبل. ثم ما استمارة أتشرف هذه.

ففتح الآخر فمه فى دهشة وكشـــر عن أنيـــاب صفر متشعبة وسأله منكرا:

- ألا تعرف ما هى استمارة أتشرف ؟

وأضحكه هذا بعد أن كاد يغضب. وكان ما أضحكه أن الجامعة لم تفكر فى اقتصار باب من أبواب الفلسفة لتعلمة شيئًا عن استمارة أتشرف التى يكتسب بها خبزه.

وتلطف إلى أستاذه الجديد قائلا:

- هدى من روعك. أرنيها مرة واحدة لا أسألك عنها أخرى.

فأخذ هذا يفتش له عنها يفتح ملفا ثم يبعثر ما فيه من أوراق في حركة عصبية ويدع هذا الملف ليتناول آخر ليفتحه ثم يتركه لينقب ما في درجة ثم لينظر باحثًا هنا وهناك بينما تعبث يداه في كل ماتمتد إليه من أوراق فيقلبها رأسًا على عقب لينتهي بعد هذا كله إلى أن يوجه إليه الكلام.

– يظهر أن ليس عندي شيء منها. اذهب إلى الأقسام الأخرى وسلها.

ويبتسم لا يدري أيغضب أم يهزأ، ولكنه يتملكه روح استطلاع فيذهب إلى الأقسام الأخرى ليرى ماذا عسى أن تكون هذه الاستمارة العجيبة، فيجدها ورقة بيضاء فيها من الكلمات ثلاث هي: أتشرف بأن أخبركم.

وذهب إلى بيته محمومًا. أيكون من أمره بعد هذه الدراسة الملحة العنيفة أن ينتهي إلى الجمع والطرح والنسخ والنقل. واصطخبت فيما بين جنبيه ألوان من العواطف منها القاتم الذاهب إلى الحلوكة، ومنها الساخط الذاهب إلى الثورة، ومنها الباسم الضاحك المتطلع إلى معسول الأماني. وقرت الضجة التي في نفسه. لقد اعتزم أمرا. ليتناولن الحياة من جانبها الساخر وليهزأن من هذا وليداعبن ذاك وليسمون فوق الجميع.

.... وكان طبيعياً أن ينظر ذات شماله حيث الذى اختاروه له مدرساً يشرح له ما غاب على أساتذة الجامعة أن يشرحوه. فيصعد فيه البصر ليجده جاحظ العينين فى وجهه ندبة طويلة بالغة تمتد حتى أسفل ذقنه حيث يحلو لها أن تتفرع إلى فرعين. قد فغر فمه يخال إليك أن فى حلقه بقية من حديث يجاهد أن يفضى بها إليك أو أنه قد هم بالكلام مرة فاحتبس عند شفتيه حائراً لا ينطلق. ولكنه مع هذا كهل مجرب قد مضى عليه من الزمان ربع قرن. حالت عليه ألوان من الحوادث والأشخاص وهو ثابت لايتحول، قعيد الدرجة الثامنة فهى كلفة به وإن كان هو برم بها. وقد أفاد من هذه السنين شيئًا، هو أنك لو اقتطعت من لحمه مقدار درهم أو دريهمات لأفضل عنده من أن يوقع على ورقة، فهو يتحدث إليك فى حكمة الخبير عن المسئولية كلما سألته إمضاء. وهو يتحدث إليك عما وراء هذه المسئولية من سين وجيم، وما وراء هذا من صف قائم من العقوبات الإدارية والتأديبية. وهو لايأنف أن يجسم من أمر الخطورة مهولا فى اللفظ حتى تنصرف عنه أو تستغنى عن إمضائه.

ونظر ذات اليمين وكان يجب أن ينظر، فهذا موظف آخر بينه وبين ربع القرن بضع سنين، وهو لا يعمل إلا إذا زوى مابين حاجبيه وتكلف الجد كأنه مقبل على أمر ذى بال. ويساعده فى ذلك أنفه فهو ليس بالطويل ولكنه يذهب إلى عل. فهو إذا وضعه فى الورق حسبت أن هذا الأنف هو الذى ينظر ويرى ويفكر دون سائر الأعضاء.

واشتجر أول ما اشتجر مع رئيس القلم، وقد كان فى ذلك متخطياً التقاليد الحكومية، فقد كان يجب لو راعاها أن يبدأ شجاره مع الكاتب الأول رئيسه المباشر ثم ينتقل بعدها إلى المراجع فوكيل القلم فرئيسه، ولكنه قفز فجأة إلى رئيس القلم، ولم يكن مختارا بل كان مسوقا. إذا ترامى إلى هذا الرئيس غرور خريج الجامعة وكبر أنفه، وانتهى إليه شيء عن طول لسانه وذرايته، فأحب أن يقف به عند حده، ودبر لذلك تدبيراً واشرك فى هذا التدبير المقربون منه، وهيأت لهم الظروف خطاباً حرره. فأجمعوا أمرهم وناداه رئيس القلم بعد أن استوثق من كرسيه وأرسل بجسمه الضخم إلى الخلف منفوشاً كالديك الرومى وبعد أن حدد عينيه ليكون لهما بريق يرهب ويخيف خاطبه فى تهكم: بيا أستاذ. ما هذا؟ مشيراً إلى الخطاب، فلم ينظر إليه وأجابه على تهكمه بتهكم آخر: ماذا به ؟ فمد إليه رئيس القلم الخطاب فإذا به قد خضب بالأحمر ضرباً وتصحيحاً، فتساءل ما شأن الثلاثة الأسطر الأولى.

قال الرئيس: يستغنى عنها بجملة «قد حفظ طلبكم لعدم صحة دعواكم».

قال: وما شأن السطرين الأخيرين.

قال: يجب أن يقال أيضاً. «فيما يختص بالمبلغ المستحق عليكم فقد أجرى اللازم نحو لغوه».

قال: ألا يمكن أن نجد لهذه الألفاظ بديلاً؟

قال: هكذا يجب أن تكتب الردود المصلحية.

وأراد أن ينتقم لنفسه فقال:

- ولكن استعمال لفظ «لغو» هنا خطأ نحوى فاحش، وصحتها «إلغاء» لأنه يقال لغو القول بمعنى سخيفة ولا يقال.......

فانفجر الرئيس مقاطعًا فى حنق.

- اسمع. لسنا هنا فى المدرسة، وليست هى بمواضيع إنشاء، ولن تأتى أنت آخر الزمان تعلمنا النحو. أرجوك... أكتب ما قلت لك ولا تضيع على المصلحة وقتها فى فلسفة فارغة.

ولم يدر أحد أيهما خرج فائزًا فى هذا الحوار ولكنه كان حديث أربعة وعشرين موظفًا بقية النهار.

ثم بدأت بعدها الدسائس تحاك حوله مرتبة مبوبة ذات فصول ومناظر. وبدأ يرهق بالعمل ويطالب بالاسراع فيسرع فيخطىء فيشنع عليه ويشهر به فى مهارة ولياقة جديرتين بالاعجاب، إذ سرعان مايكشف الخطأ حتى يسرى نبؤه من موظف إلى موظف، ومن رئيس إلى مراجع، ومن مراجع إلى وكيل، ومن وكيل إلى مدير حيث يسجل فى تهكم على خريج الجامعة، وناداه إليه المدير ذات يوم وقذف فى وجهه:

- إنى غير راض عنك لأنك غير مكترث بعملك كثير الأخطاء فيه. ورئيس قلمك غير مسرور منك.

ولم يفتح فمه بخير أو شر ولكن ذاك لم يمنع المدير من أن يقول:

- لا. لا. لا أحب نقاشا ولا جدالا. أحب أن أسمع عنك ما هو أحسن من هذا. تفضل. وأشار إليه بالخروج.

وخرج فألفى رئيس القلم لدى الباب صورة حية للشماتة. وفار فائرة وجاهد أن يكتمه فضاق به صدره، فانفجر صاخبًا لاعنًا، فلم يجبه أحد منهم إلا بوجوم خبيث.

وحمل للوظيفة أشد الكره وأبلغ البغض، فكان لايصدق إذا ما أصبح أن أية قوة تستطيع أن تذهب به إلى المصلحة، فإذا ذهب فكما يذهب التلميذ الهارب من مدرسة يجره أبوه جرًا، وما كان ليجره وهو كبير إلا العشرة الجنيهات التى يتقاضاها أول كل شهر بعد أن تشوهها ألوان من الاستقطاعات لا يدرى حتى اليوم ماكنهها.

* * *

ومضى حول، وأقبل على نفسه يحاورها ويداورها، وبدأ هذان الصوتان الدائبان فى الإنسان يقلبان وجوه الرأى.

فقال أولهما: ثم ماذا. ما نتيجة كل هذا ؟

فيقول الآخر: ماذا ماذا ؛

فيتم الأول: أيرضيك ما تلاقيه من فشل فى عملك؟

ويفهم الآخر فيقول: ولماذا لا تبحث عن وظيفة أخرى؟

فيجيب - ولكنك لا زلت تذكر كيف حفيت قدماك لتنال هذه.

فلا يعجب الأول منه هذا الحديث ؟ ولكن ما لنا وما لشهاداته. إذا احترمناه فلمركزه لا لشخصه، والرئيس تجب علينا له الطاعة.

فيتخابث الصوت الآخر قائلاً: أترضى لنفسك الهوان ؟ أو تروضها على الذلة؟

ولا يقل الأول عنه تخابثًا: ولنفرضه هوانًا. فماذا يمنع من تحمله فى سبيل الترقية، حتى إذا ما نلتها أجريت كل ما تتلهف إليه من إصلاح، والرئيس أقدر على الإصلاح من مرءوس.

ولم يجبه الصوت الآخر. لقد نالت منه الحاجة بعض الشىء، فيمعن الأول فى تخابثه فيقول: لاتخش شيئًا. سأعرف كيف أبقى على ماء وجهى، سأتلطف فى القول، هذا كل ما هناك. ولأشهدنك ستجدنى إن شاء الله معارضًا ذا شكيمة وبأس ماخولف الحق والضمير.

.... وبدأ حولا جديداً وسياسة أخرى اكسبته بعض العطف الذى يصبو، وصرفت عنه بعض الكيد الذى يخشىء. وأقبل على عمله مليئًا بالحياة والأمل، يحاول أن يقضى على ما فيه من كآبة وملل وبعض مايخترعه من أساليب، وببعض ما يحمله من فلسفة، فلكل كتابة عنده مهما تفهت شخصية قائمة تدل على جانب من نفسية كاتبها حقر أو عظم، فهذا مغيظ مخنق، وهذا جبان رعديد، وذاك خائف متلاوم على نفسه. وآخر ماكرًا أريب. وهو يظلم هذه الكتابات بما يحملها ظالمًا بما لا طاقة لها به من فلسفته فيعود يضحك منها ومن نفسه.

ثم هو يتعرف إلى أسرار العمل بالرجوع إلى المنشورات التى يحتفظ بها لتنسى لا لتقرأ، ويحسون منه بذلك فيصبح لديهم حجة ومصدراً يرجع إليه.

ويبذل هو الرأى فى هوادة ورفق، يحاول أن يتضع ما أمكن له التواضع حتى لاينفروا أو يتغيظوا أو يأخذهم الحسد فيمكروا.

.... وأقبل عام آخر وخلت وظيفة رئيسية صغرى، فرشحه لها البعض، فقامت عندئذ ضجة كبرى. وقيل أن معه شهادة عليا وإنه ليستحقن شيئًا.

فقال آخر: ولكنه لم يمض عليه غير سنتين وأنا لى فى الخدمة خمسة عشر عاماً.

واختنق الجو بالوساطة والرجاء والتوسل. وكان المنصب لأقدمهم عهداً، وكانت له التعزية والاعتراف بكفاءته والأسف لقصر مدته.

وكر إلى بيته أسفا وإن مازج أسفه شيء من السرور. لقد لاقى اجتهاده تشجيعًا وثناء. أو لم يكن قد أخذ على نفسه موثقًا لينالن رضاءهم ولا يريقن ماء وجهه ؟ وهاهم مجمعون على الثناء عليه. ولئن ضاعت هذه الفرصة فلا شك أنهم منتهزون له فرصة أخرى. ثم ماذا؟ إنه محب للإنصاف. أليس حراما أن تهمل الأقدمية أو لا تراعى.

وضرب كفيه سروراً، ولكن لفظة الأقدمية رنت فى أذنه فتوقف واجماً نعم الأقدمية لقد نسيها. وأخذ يعدد الأقدمين من زملائه،

ثم يحسب كم من السنين يجب أن يترقب حتى يأتى دوره، وأذهله الرقم فلقد كان عشراً. مع إدخال الموت الطارىء لبعض الرؤساء فى الحساب والتقدير.

وذكر زميليه من اليمين واليسار، وذكر كيف أصبح يعطف عليهما بعد أن كان يهزأ منهما. لقد كانا يضجان بمر الشكوى كيف أنهما أجهزا على ربع القرن وهما قابعان فى درجتهما، وكيف أن علاوتيهما لاتزيدان ولا تقدران على زيادة. إنها ترتطم بقيد من حديد يدعونه مربوط الدرجة وعرض رؤساءهم ورؤساءه فوجد أنهم لايميزون من زميليه شيئًا ولايفضلون عنهم سنًا، لاشك أن هناك سراً.

وأحس بالخيبة تدب إلى قلبه دبيباً، فتهالك إلى مقعد، وأخذ الستار ينكشف رويداً عن مناظر كان يغض عنها البصر من قبل. زملاؤه فى المصلحة يتداولون الهمس كل فى أذن أخيه متضاحكين متغامزين: إن هذا الرئيس لم يكن بالأمس شيئًا، إنه لأجهل من الجهل ولكن اتصاله بالمدير هو الذى رفع به إلى الرياسة. وإن ذاك كان جاسوس الوكيل فاتيح له أن يتخطى من هو أكفأ منه وأقدر.

قد كان يطرق آذانه بعض هذا الحديث فينبو عنه سمعه فلا يبلغ فؤاده، ولكنه بعد اليوم ليغشى ندى القوم ويسلك إلى مجالسهم الخاصة ويسترق السمع إلى مايتسارون به. وإنه ليعرف من يومها أشياء لم يكن يعلمها من قبل، لقد عرف أن هناك نقوداً يعيرها المرؤوسون رؤساءهم فلا ترد إليهم نقوداً، وإنما ترجع عليهم بالترقيات والعلاوات.

وعرف أن هناك أعياداً تنتهز لتقدم فيها طاقات من الورد جميل ظاهرها خبيث باطنها، وأن هناك أعراسا لبنات الرؤساء يبذل فيها المرؤوسون النفيس من الهدايا يطل من ورائها طلب الدرجة الخالية! وعرف أن هناك نواحى خفية للرؤساء تمثل ضعف البشرية حينما تتملكها حيوانيتها، وهؤلاء المرؤوسون لايجدون غضاضة فى إشباعها لهم أو تهيئة السبل لهذا الإشباع.

وأمام هذه الأساليب يتخافت ضوء الحق والقانون، ويصيب الوهن قيود الدرجات ولو كانت من حديد !

وإنه ليتبين له فوق هذا أن طريق الاستقامة والجد طريق طويل جاف لا تجد إليه العلاوات ولا الدرجات سبيلا، اللهم إلا فضلة من فضلات القوم يتفضلون بها فى من، وإلا مسكة مما تسمح به القوانين اليقظة والمنشورات المترقبة والتعليمات المتفانية فى إخلاصها للأخذ بخناق الصغار من الموظفين.

ولم يفزع لهذا ولم يضطرب، بل استقبله فى هدوء العالم - يستخلص لنفسه الحقيقة. ولكنه لم تعد تتراقص أمامه أشباح الشرف والرجولة والكبرياء، إذ كانت كلما حاولت أن تطل برؤوسها تمثل له صورة زميليه يتلمظان لكل درجة تخلو، ويسيل لعابهما عند كل علاوة تمنح، ويشهدان الملأ والأرض والسماء على الحيف الملم بهما والظلم الواقع عليهما. ثم تبدو له صورة رجل فى الخمسين من عمره موظف فى الدرجة السابعة قد أحدودب ظهره قليلاً، وعلت قصبة أنفه زجاجتان

سميكتان لايمت إلى الحياة النابضة الشاعرة القوية بنسب ولا بشبة نسب، وإنما هو آله متحركة كبقية الآلات التى تستعين بها دواوين الحكومة. يسعى إلى المكتب فى الصباح ويمسك بالقلم يحركه ذات اليمين وذات الشمال، ثم يتزايل عنه فى الظهر ليرجع إليه فى المساء.

لقد كان يفزعه أيما فزع أن يتخيل نفسه هذا الرجل، وقد كان تخيله هذا كفيلا بأن يقض من مضجعه كلما تلمس هدوء نفس أو سكينة طوية.

ولبث حائرا يتردد برهة من الزمان. ولم تكن حيرته بين طريقى الخير والشر أيهما يسلك، وإنما أيهما أقرب إلى الغاية وأيهما أسهل منالا !

.... وجلس مع إخوانه ذات مساء يلعبون الورق ويحتسون الخمر، ولم يكن يحتسيها، فإذا بزميل لهم يقبل فيتهللون لمقدمه من بعيد. وما كان هذا الزميل إلا شابا أمردا كحل، ولم تكن فتاة فى الوجود إلا ولها عند هذا الشاب قصة وله معها غرام، سواء عرفت بهذا أم لم تعرف، رآها أو لم يرها.

وكانوا يستملحون منه هذا. ويتخذونه موضع دعابتهم وتندرهم ويتخذه هو موضع الفخر والمباهاة. وكأن شيئًا أهمه هذا المساء ضاق صدره عن احتباسه فسأله أحدهم: ما وراءك ياعصام.

قال: اسمعوا. خبرًا هامًا. لقد رأيت ابنة المدير وتعرفت إليها وراقصتها؟ وضجوا بالضحك وضج هذا بالأيمان المغلظة يعزز بها قوله؟

فقال أحدهم: لعلها صفعتك ! وقال آخر. مسكينة لقد ماتت فى غرامك لاشك وقال ثالث: أناولتك حذاءها لتقبله ؟ وقال رابع: أكان فى رجلها جورب. لم يضحك لهذا بل عجب لماذا دق قلبه عنيفًا، ولماذا كان لذكر ابنة المدير جرس يذوى فى أذنه رفيقًا عذبًا. وأقبل بكليته على الحديث ينشر له أذنا صاغية ويعيره سمعًا واعيًا.

لقد مضىء إلى بيته ليلتئذ كما يمضى، إلا أن حادثًا صغيرًا ألم به: كتابان كان يقرأ فيهما استبدلهما بكتابين. ديوان أبى العلاء وما وراء الطبيعة لأفلاطون، لقد دفنهما فى سلة ليضع مكانهما ديوان المتنبى وموجزًا لفلسفة نيتشه.

ولم يفكر كثيرًا أو قليلاً فيما هو مقبل عليه، فقد أصبح يخشى التأمل وإعمال الفكر وإطلاق النظرة الواسعة إلى الحياة، وأمسى يتحرس الصوت الذى فى نفسه.

كلما حاول مداورة أو جدالا، وبات همه الأول والآخر الرقص. الرقص يقبل على تعلمه كالمحموم وينسى من أجله طعامه وشرابه، وأضحى ملازمًا للشاب الأمرد الأكحل جزءًا من النهار وسواد الليل.

* * *

... لئن استطاع أن ينسى فلن ينسى ليلة أن استجابت خطواتهما هو وابنة المدير إلى نغمات الموسيقى الراقصة، ليلة أن اطمأن صدرها إلى صدره، والتف ذراعه حول خصرها. ليلة أن قدمه إليها الشاب الأكحل الأمرد فى أحد المراقص.

فقد كادت تصيبه جنة بما فرح، ولكأن أبواب السموات قد فتحت له جميعًا، ولكأن رضوان قد غفل عن جناته قليلاً فدلف إليها من غير موت ولانشور ولا حساب.

وأجاد مع ابنة المدير دوراً بارعًا ما يحسب أنه يستطيع أن يجيده، وقام بتمثيل متقن يفوق كل تمثيل.

وجلس فى مساء صيف إلى شاطىء البحر فوق الرمال وأمام الأمواج الناعسة المتكسرة وبقى صامتًا فقالت:

أبعد كل هذا ؟ قال متجاهلا: ماذا ؟

قالت: لا أعرف لك اسمًا.

قال: ألم أقل لك أن تختارى لى واحداً !

قالت: إنى لا أفضل على اسمك الذى تتسمى به اسمًا.

قال: يا آنستى إنى أعرف منك باسمى. أن حروفه لمتنافرة، اختاروه لى لتعافه الأذن فيحبس عنى العين الحاسدة.

فضحكت ثم عاودت الحديث سائلة: كيف تجدنى ؟

فقال فى ذكاء: فتاة ! فغضبت أو تغاضبت: أهذا كل ما عندك ؟

قال لا. وصمت. فصاحت به أبك بكم؟ فلم يجب سؤلها وقال متممًا:

نعم. فتاة ولك عينان. قالت متهكمة: نعم. فتاة ولى خد وأنف ورجلان.

جنيه فقط لاغير. أتعلمين موعد الترقية التى قد تأتى وقد لاتأتى؟ عشر سنين لأصبح كاتبًا فى الدرجة السابعة فى قلم السكرتيرية بمصلحة الأملاك. فوثبت هاتفة وهزت كتفه صائحة: أنت موظف هناك ؟ إن أبى هو المدير.

فبدرت منه صيحة حادة لايدرى حتى الآن كيف استطاع أن يخرجها: ماذا؟ أبوك المدير؟

قالت فرحة. نعم وأخذت تضحك. فلم يجب ولكنه أمسك بيدها بعد قليل. وقال: هه! سأتخذ هذا الطريق، مشيرًا إليه بيده الأخرى. ففتحت فاها دهشة قالت: لا أفهم. قال: هذا فراق مابينى وبينك. قالت: ماذا تقول؟ قال. إن أباك مدير. قالت. إنه سيساعدك، سيساعدك ونستطيع أن نتزوج.

... وابتسمت له دنيا الوظيفة إذا ناداه إليه المدير. لقد كان هو بعينه مدير الأمس ولكنه اليوم قال باشا فى وجهه:

- إنى أحب أن أشجع العلم والمتعلمين. وأحب أن أفسح لهم مكانًا، ولقد سرنى ما سمعته عن كفاءتك. وإنى أعهد إليك بدراسة عمل السجل المرتبك وكتابة تقرير عن حالته.

وكتب التقرير وكتبت مذكرة بذكاء الموظف وبما يبذله من همة ونشاط، لم يعرف المداد من يومها طريق محبرته، وأختفت بطريق السحر أكداس الأوراق من أمامه، وأصبح أهم مايشغله قراءة الجرائد والمجلات.

وأخذ يتسكع معظم الليـــل بين الندى والحــانات. وأخذ يذهب متـأخراً كل صـبـاح، وأخـذوا يشـيدون بغـيـرته على العمــل وبما يبــذله من مجـهـود.

وخلت درجة عجيبة، ولم تكن كذلك لأنها الدرجة السادسة، بل لأنها أبدا حيرى مترددة لاتطمئن إلى أحد، فهو لابد تاركها وهى لابد متطلعة إلى المقرب المحبوب والسعيد المجدود ممن تضيق به المصالح الأخرى عن أن ينالها فينتقل إلى حيث الدرجة الحيرى، ثم يرجع إلى مكانه الأول رابحًا منصوراً.

وقفزت فجأة بين أكوام القوانين والمنشورات ورقة تجيز لحامل الشهادة العليا أن ينتقل من الثـامنة إلى السادسة دون مراعـاة مكان أو زمان. وكان عجيباً أن تظهر، فهى لاتظهر إلا بقدر حين يريد الله أن يبسط الرزق لمن يشاء.

وهو لا ينسى صباح أن كتبت مذكرة ترشيحه للدرجة. فقد جاء المصلحة ثملاً كئيب النفس من طول ماسهر، فاشتجر مع رئيس القلم فهدده هذا أن يشكو فقوبل وعيده بوعيد. ثم ناداه المدير: من يرشح للدرجة الخالية ؟ فأخرج هذا قائمة خلواً من اسمه فصاح به المدير. إنه يريد الشباب المتعلم، وإنه لن يرضى بها إلا لشهادة علياً! ولم تأخذهم الحيرة فى الخيار فقد كان هو الوحيد.

* * *

ومرت الحوادث سراعًا، فقد نقل هذا المدير وجاءهم مدير غيره فيعرف صاحبنا ساعة حلوله، فيخف إلى استقباله على محطة السكة الحديد. وهاهو ذا المدير الجديد لا يدرى شيئًا عن بلدته الجديدة فيقدمه إليها، يسكنه أجمل البيوت، ويأتى إليه بأحسن الأثاث ويسارع إلى خدمته فى حنان.

وهاهو ذا المدير أمرؤ سمر ولهو، وهو غير خبير بأماكنها فيعرفه إليها خريج الجامعة، ويمسى له رفيق أنس وشريك طرب. وهاهما لا يفترقان كل مساء، ثم هو من بعد هذا الخادم المخلص الأمين.

ويعجب المدير الجديد بذكائه الشديد وبهمته التى لاتعرف الملل، ويهمس فى أذنه أنه غير راض عن رئيس القلم الذى هو فيه، وأنه لايرى غيره أجدر بهذا المركز ولا أحق. فيتقبل هذه المنة شاكرًا فى خضوع متعففًا فى دهاء، معرضًا بهذا الرئيس كلما سنحت الفرصة فى حذر وسكون.

وهاهى ذى التى أحبته والتى أتخذها سبيلاً تذكره فى رفق بالعهود. ويجلس هو وحيداً وقد استيقظ الصوت الذى فى نفسه بعد طول همود، ولكن لا ليضرب على نغمة الشرف والواجب الضمير، بل ليوازن بين مايكسب ومايخسر، وليرجح كفته فى الميزان. لقد كانت ابنة مديره السابق وسيلة وقد انتهت مهمتها. وإن أباها رغم مركزه لفقير، وإنه عما قريب سيبلغ الستين فلا يكون له نفوذ ولاشبه نفوذ. وإنها ليست بذات جمال وإنه ليس على حبها بمقيم. وإنه ماقيمة العهود والمواثيق. وإنه من يدرى؟

فقد كانت التى عرفها بالأمس ابنة مدير وقد تكون غيرها فى الغد ابنة وزير.

وتقبل عليه مكاتباتها معاتبة فى رقة، شاكية فى ذلة، معنفة فى غلظة، ناعتة بأبلغ السباب فلا يجيبها إلا بالصدود. إنه لاه عنها يبحث عن صيد جديد.

ويحمل مساء قر إلى بيته صحيفة وخطاباً. أما الصحيفة فله فيها أن قد وافق الوزير على أن يكون رئيساً للقلم. وأما الخطاب فمنها هى ابنة مديره السابق. خطابها الأخير تهنئه فيه بمركزه الجديد. وتعتذرله عمافرط منها وتصفح عما مضى منه. وتختم فى تهكم أن لعله قد وفق إلى خير منها، ولعل الأخرى واجدة له مركز أحسن ودرجة أكبر. وجلس حائراً لا يدرى أيبتسم أم يبتئس. وتحين منه نظرة إلى صورته طالباً فى الجامعة ويبرز له شبح من بعيد: هو فى العشرين من عمره بين إخوانه الطلبة يتحدثون عن المستقبل البعيد والمستقبل القريب، فيتحمس هو للكرامة والجهاد الشريف، ويعلن كرهه للدس والخبث، ويشهد الملأ أنه سيعمل للضمير، ومن أجل الضمير، لايجعل عليه رئيساً إلا هو، ولا يخضع الإله. وأنه مؤمن بالآله وحده، لايسعى إلا إليه ولا يرجو إلا منه.

وأيقظه من ذهوله برق ورعد ليجد الصحيفة التى قرأ، وقد ظهرت منها الأسطر بتعيينه رئيساً فتتحدر دموع من مآقيه وتسح على خديه، فلا يحاول لها إيقافا ولا حبساً. لقد أصبح رئيساً ولكنه بكى!.



جمال رخيص

... نظر إلى وجهه فى المرآة. ولم يكن الذى رأى مما يثلج الصدر أو ترتاح إليه النفس. وبرغم ذلك ابتسم... ابتسم ابتسامة محزونة. لقد قالها له زميل . إن وجهه يصلح أن يكون مصوراً جغرافيًا يبين طبيعة الأرض صعبها وسهلها. فوجنتاه البارزتان جبلان مشرفان. وخداه الغائران بئران قد جف ماؤهما. والبثور. التى تظهر هنا وهناك أفواه براكين ثائرة. وهذه الثقوب فى وجهه وتلك الخطوط – أثر مرض جلدى – مسالك وبحيرات وقنوات.

... ونظر إلى بقية جسمه لعله يجد فيه جمالاً. وهز رأسه آسفًا. أى جمال فى هذا الطول الفارع والنحولة المفرطة؟ وهذه الأذرع مضمورة كالعصى والسيقان هشة كأعواد غاب.

... وولى المرآة ظهره وأطرق برأسه يائسا وارتفعت ضحكته ساخرة جوفاء وشرع يخاطب نفسه: لا. لا. مستحيل. لقد أطالت إليه النظر هذه الفتاة جارته فى الترام. ركبت حيث ركب ونزلت حيث نزل. أكانت ابتسامتها إعجابًا؟ لا. مستحيل. ولم تكن إلا إشفاقًا ورثاء. ولم تقبل

عليه بعينيها لاتريم إلا عجبًا من أمره كيف استطاع القبح أن تجتمع ألوانه كلها وأن تتراكم أساليبه جميعها فى هذا الوجه؟ ألسنا ننظر إلى القرود مهما شاعت فنهش لها ونبش ولانكاد نفارق أقفاصها؟. لم تكن نظر هذه الفتاة إليه إلا بعض هذا.

لا. لا. إنه لم يخلق للحب - وما هو الحب؟ ولوى بشفتيه ودق كفًا بكف: الحب الحياة ! وهم شاعر مجنون. إنه أقوى من أن يحتاج إلى حب. إن فى الفلسفة وسمو التفكير لغنى عن الغزل. وإن له فى الحياة لشأنًا أعظم من شأن الغرام.

وتنفس فى قوة وتحسس صدره يريد أن تتمشى الطمأنينة فيه. ولكن وخزًا أليما أصاب منه القلب وشجى أوجع له الحلق، ودموعًا محرقة سالت من العينين.

وألقى بنفسه إلى الفراش. إنه يكذب يكذب. يخدع نفسه. إنه يشتهى الحب. إنه يتلهف إلى خصر نحيل يهصره. وذراعين عبلتين تحيطان عنقه فى حنان. وشفتين نديتين يلهبهما بقبلاته. وصدر ناضج رجراج يعتصره بكفيه. لا. لا. إن باطلا مايعزى نفسه. إنها أكذوبة هذه الفلسفة التى يقرأ حتى تحمر عيناه. وهذه الكتابة التى يكتب حتى تتبلد أصابعه فلا يستطيع مضيًا. أوهام يصرف بها عن نفس تنزع بكل جوارحها إلى المرأة.

... وانطلق هائمًا على وجهه يجوب الطرقات. يغذ فى سيره ويوسع فى خطاه. يريد أن يرهق جسده أو يقتل بعضه بعضًا.

وصادفه صديقه العزيز «منصور». فناداه:

... إلى أين يافكرى تجرى كأنك فار من السجون.

وكان شأن الصداقة بينهما غريبًا. فقد كان منصور جميلا فتيا يحبه النساء. وله معهن وقائع وغرام يتخذها موضع أحاديثه مع فكرى فيسمع إليه فى رضى يخفيه. ولكنه الليلة لم يأنس بلقائه من سوء ما اضطربت به نفسه.

وصاح به منصور.

.... ماذا؟. أتظن لى ساقيك الطويلتين. تضع رجلا فى الإسكندرية وتمد الأخرى فإذا بها فى دمنهور.

ولم يضحك ولم يسمع ولم يخفف من سيره، فاضطر منصور إلى أن يقفه بكلتا يديه قائلا: مابك يافكرى؟ أمهموم أنت؟ تعال: عندى لك مايسرى عنك. تعال أحدثك عجبًا. لقد جاءتنى فاطمة بالأمس، جاءتنى فى خفة العذارى وشوق الأنوثة المتلهفة إلى الحب... وضحك. ثم عاود حديثه:

... لقد كان موقفًا شاذًا. لقد كنت أردد كالببغاء عباراتك التى علمتنيها. أنت فتاة وأنا لك ناصح. أحذرى الشبان جميعًا. إنهم يغررون بالفتاة باسم الزواج والحب. حتى إذا ما استلبوها أعز ما عندها نبذوها نبذ النواة. أترى ماذا حدث؟ لقد ألقت بنفسها بين ذراعى باكية، وكدت أنسى نفسى وأهم بها لولا أن شكرتنى وودعت. أيه فكرى. ألا تسمعنى؟ أصح. ألا تهنئنى، لقد أثمرت فلسفتك معى وأصبحت تقيًا.

ليته يركع عند هذين القدمين الدقيقتين الصغيرتين!. يسبح بهذا الجمال ويقدس هذه الأنوثة ويلثمها فى خشوع.

... ورنت إليه بعينين فاترتين ساخنتين. فخفض ببصره لهول هذا السحر. وسارع إلى إخفاء وجهه خوف أن تقع على قبحه فتشيح عنه أو تشمئز. كم كره وجهه هذه الساعة... ولكن ياالعجبه! إن نغمًا رقيقًا عذبًا من شفتيها القرمزيتين داعب أذنيه! كم الساعة من فضلك؟ واختلط عليه الأمر ودارت الدنيا أمام عينيه وأصابه خبال. فقام وقعد ونسى أنه لايرتدى غير ثوب حمام، ففتش جيوبًا ليست هناك. والتفت إلى اليمين وإلى الشمال وتطلع فوق وتحت:

وندت منها ضحكة صغيرة لينة قائلة: «أظنها الظهر».

وقد خرجت الألفاظ من فمه. «نعم إنها الظهر». ثم أردف فى حماسة لامعنى لها: «لا. لابد أنه الظهر. الظهر تمامًا».

ونهضت من ضجعتها تتفتل فى مشيتها وتتأود وبصره شاخص إليها.

* * *

وأصبحت هذه البقعة أحب ركن إليه فى العالم. يطلع الصباح ليجده قد سبقه إليها. وتزايل الشمس ويأخذه الليل فلا يغادره إلا على مضض. وهو يترقبها وهى لاتأتى. وهو يستيئس ويحزن وفتاته لا تدرى.

ولكن ها هو ذا يمسك بصدره إلا يقفز منه قلبه. إنها هى تتثنى وتمشى الهوينا وطيف ابتسامة يداعب شفتيها. وتقف وتتردد ثم تخلع ثم وثبة واحدة فإذا بها بين أحضان المياه. ياالله، حتى الأمواج تقبلها فى عطف وتضمها فى رفق.

وتنازعته العواطف الصاخبة. وما لبث أن وجد نفسه يغوص وراءها. ولمحته بطرف عينيها وأسرعت فى سبحها، وتسابقا... دون أن يجروء على الدنو منها. كلما قاربها أصابته رجفة فتباطأ عنها. وغابت عن عينيه. فشرع يدور ويدور باحثًا عنها فألفاها وجها لوجه إلى صخرة ناتئة. فأربكه هذا ومكث غير بعيد محجما. أيقبل أم يرتد على أعقابه؟ وأشارت إليه فى جهد.. لقد أنهكها الشوط وتعلقت متهالكة بالصخرة... ولم يفهم ما بها. أو أذهله جمالها عن أن يفهم. فدنا ولم يفعل شيئًا. وبلغ بها الخور مبلغه فأفلتت قبضتها للصخرة وشهقت وغمرتها الأمواج. ففزع أيما فزع. وجذبها من شعرها. ولم يكن بالقوى فلا يعجزه الحمل. ولا بالمتفنن الماهر فى السباحة فيحتال للأمر. فكم أشرفا - وهو يجرها - على الغرق. وكم موجة أرادت أن تبتلعهما. ولكنه تماسك. كلما كلت ذراعاه تطلع إلى التى بين يديه فاستمد من ضعفه قوة.

وحملها إلى الشاطىء حيث وجد جمعًا ينتظرون. وحيث وجدت عشرات من الشبان الأقوياء يتلقفونها إلى مكان الإسعاف وعشرات آخرين إلى عشتها.

وتركوه هو مبهور النفس مضعضعاً ممدداً على الرمال!.

... ورأته ورآها بعد أيام فتوارى عنها. ونادته هاتفة. وأقبلت عليه تصافحه فى حرارة وقد علت وجهه حمرة قانية ونكس ببصره إلى الأرض كطفل أذنب. وسألته أين كان؟ أغاب فى بطن الأرض أم صعد إلى السماء. وغمغم بين شفتيه شيئًا. وشدت هى على يده فى رقة قائلة كم أشكرك. لقد أنقذت حياتى.

وتلعثم وزاده اضطرابا أن خيل إليه أن القوم من حولهما يتغامزون وأومأ بعينيه إلى صخرة نائية يدعوها إليها صامتًا دون أن يجرؤ على القول. وفهمت.. وجلسا. هو لا يكاد يستوى من بهجة وسرور أفعما صدره والألفاظ حائرة على شفتيه دون أن تنطلق. وهى تخالسه النظر وكأنها عبثًا ما انتظرت أن يبادئها الحديث.

فقالت: أمن هنا؟ أنت.

فأجاب متلعثما: نعم. نعم. ثم سكت وقال بعد لأى: و. و وحضرتك.

فضحكت: حضرتى !. لا لست من هنا. أنا من مصر.

قال: وستقيمين. أعنى. أعنى. واحتبست فى فمه الكلمات.

قالت تشجعه: أنا أقيم مع عائلتى أسبوعا ثم نرجع.

قال وقد فكت عقدة من لسانه: أسبوعا. أسبوعا واحداً.

فتنهدت قائلة: أيجب أن يكون أكثر من أسبوع.

قال متحمساً: نعم. نعم. يجب أن تمكثى شهراً. شهرين.

قالت: ليت الأمر بيدى.

قال: وفى هذا الأسبوع أستطيع أن. أن... وهربت منه الألفاظ.

قالت تغريه بالكلام. أن. ماذا؟

وكان هذا فوق طاقته فانفجر قائلاً: لا. أعنى لاحق لى. كنت أود أن أطلب شيئًا لا. لا. لاشىء.

ووضعت إصبعها الأنيق على فمه فى دلال: لا تنس أنك منقذى فأطلب ماتريد.

فقبض على يدها فى قوة. وقال فى حدة: «أرجوك ألا تذكرى هذا مرة أخرى. أفهمت. إنى جاد. لا أحب أن يكون الذى بيننا عاطفة شكر. لا لا أحب هذا». ثم أرتج عليه وهدأت حماسته وقال معتذراً: آسف. أعذرى سقطة لسان فلم تجب ولكنها لم تتمالك ضحكة قصيرة أخفتها فى صدرها ولم يسمعها.

* * *

كان يحدثها عن الكواكب الساهرة ترنو بعيون ناعسة مثقلة. وعن هذه النجمة قد التصقت بالقمر خجلى تساره حبها فى استحياء. فيبتسم القمر عن غرور ويدل عليها بما له من جمال.

وهذه الأمواج يتطارحن الغرام ويتناغين ألحان الهيام. تجرى العاشقات منهن خليعات متجردات عن ثيابهن البيض حتى إذا

ما أتين الشاطىء ارتمين متكسرات وتهاتفن متضاحكات صاخبات. فيجرهن البحر إلى أحضانه فى لهفة العاشقين. فتبتسم حائرة وتقول وقد مالت برأسها إلى كتفه: كنت أظنك أبكم... ثم تضحك أنى متعبة قد أجهدنى طول مامشينا!.

ويركبان سيارة وينشق أريج عطرها فيبتهج ويهمس فى أذنها بجمال حياته معها وردد حبه لها وسمو خياله بها. ويسألها فى توسل: ياترى ماشعورها نحوه؟ فتجيبه: أنا جوعانة. جوعانة جداً. أذهب بى إلى حيث نأكل.

... ويطعمان ثم يقرأ لها قصيدة فى سحر عيونها فيداعب عينيها نعاس هانىء لذيذ. ويسألها أنائمة هى فلا تجيب إذ استلمت إلى رقاد عميق! فيخلع معطفه يغطيها فى حذر خوف إيقاظها. ثم يرسل بنفسه إلى أحلام معسولة موشاة بجميل الأمانى.

لقد أصبح ينهض مع الشمس ويشدو مع الطير. ويترنم بأغانى الحب. وغدا له كل ما فى الحياة جميل وجميع ما فى الكون باسم. وكافة ما فى الدنيا متهلل ضاحك. وأمسى وقد ملأ شغاف قلبه فيض من النور. فأقبل على الله يتهجد له فى خشوع ويصلى فى حرارة. وتغرورق عينه بدموع هى مزاج من فرح وشكر. وبات وقد عرفت نفسه الطمأنينة والراحة بعد الثورة والسخط، وتذوقت الجذل والحبور بعد الوحشة والألم. أسبوع واحد معها خلقه خلقًا جديداً. بينما لم ينعم منها إلا بقبلة واحدة أراد ليلة - أخذه فيها الجوى - أن يطبعها على شفتها. فمنعته منها بكفها، فضمه إلى شفتيه فى قوة.

أسبوع واحد أنفق فيه سبعة وعشرين جنيها. بعثرها فى الهواء وهو طروب مرح. ونسى أنها كل ما أدخره ليوم عوز من حياة مكدودة مكتئبة.

لقد نسى هذا أو تناساه، أو إنما أراد ألا يذكره. لقد كانت له الأيام السبعة حلماً جميلاً متصلا خشى معه الحقيقة الخشنة. حتى المرآة فى حجرته كان يحاذر أن تقع عينه عليها ولو من بعيد. والمرآة خبيثة لها عين كبيرة واسعة. فتراه قد ضاق بها ذرعا ونحاها من مكانها إلى أقصى الحجرة فى ركن مظلم.

ولم يستيقظ من حلمه إلا صباح أن ودعها عند رحيلها إلى القاهرة باكيًا حزينا آسيا. وجاءه ليل طويل موحش فأحب أن يتعلل أو يتلهى. فكتب شيئًا فإذا بالذى كتب شعراً... وعرفت المجلات والصحف من يومها قصائد له فى «ساعات الفراق» و«صخرة التلاق». «ومناجاة الحبيب» «وعبادة الجمال».

وبعث إلى صاحبته بكتاب فلم تجبه. فسمع الناس مرة أبياتًا فى ذل الغرام، وآهات العشاق، ومر الهجر، وأرق الجفون.

* * *

.. ومضى يومًا إلى صديقه منصور وأنشأ هذا يحدثه عن جديد مغامراته ولكنه كان عنه لاهيا. لقد أصبحت له الآخر ليلاه وسأله منصور إذا رآه حالمًا مابه. فأجابه وفى صوته رنة إشفاق:

- يامنصور. إنك لم تدر بعد ما هو الحب.

– فكرى أجننت؛ لقد كدت تخنقنى. مالك وهذه الفتاة ؛ أقسم لك إنى أعرفها وأعرف بيتها. إنها من القاهرة. وإن هى إلا من بنات الهوى. ولم تكن لى وحدى وإنما لعشرات.

.. وأنفتل من بيت صديقه أشعث أغبر كأن به مسا أو أصابته جنة.

ورآه من ركب معهم قطار القاهرة فتهامسوا فيها بينهم: مسكين. لعله أصيب بفقد عزيز. واحزناه. يكاد يجن. أنظر! إنه يشد شعر رأسه. واقلباه.

* * *

ورأته صاحبته من بعيد فضحكت قائلة لجارة لها:

– أنظرى إلى هذا الرجل. كأنه هو.

قالت جارتها: أيهم؟

قالت: الذى حدثتك عنه. الشاعر الدميم الذى عرفته فى الإسكندرية.

قالت: آه. الذى استلبت ماله.

قالت وهى تغمز بعينها: وقلبه أيضاً.

قلن: وتركتيه يظنك شريفة مدلهة فى غرامه.

فلوت شفتيها... ثم علت ضحكتها. قالت:

لو سمعتيه يتغزل بى ويقول لى أشعاراً فى القمر لا أفهم منها حرفا. ثم يجلسنى على مقعد ويحدق فى عينى الساعات الطوال لا يريد

واتقدت عيناه: لاتفهمين. ألا تدرين ياعاهرة أنك فجعتينى. فجعتينى فى قلبى، فى آمالى، فى أسمى عواطفى. ياللسخرية. الوحى. الإلهام. الحب. الشعر كله لك أنت ومن أجلك أنت.

وتقدم نحوها فتراجعت فزعة. فدفع بها إلى كرسى وأقبل يعتصر ذراعيها قائلاً فى غيظ. أنت فتاة تافهة. مثلك تخدعينى.

... واستلانت واستخذت خوفا وذهولا، وزادته استكانتها خشونة وتمزق الحرير عن جسمها اللين الغض. فتملكته شهوة غاضبة وأنهال عليها تقبيلاً وعضًا. ! وهى لاتتأوه ولا تئن. وهو يمعن فى شراسته فيضمها إلى صدره يكاد يهشم عظامها. ولا يلبث أن ينسى كل شىء نفسه والوجود...

... ويجلس لاهثًا يتفصد جبينه عرقا. فتنهض إليه متخاذلة متكسرة تحيط عنقه بذراعيها هامسة فى أذنه خجلى:

– فكرى. والنبى ما أحببت أحداً كما أحبك الآن.

فينظر نحوها مغضباً عابساً. ثم يدفعها بعيداً عنه مشمئزاً ويقول.

– تالله ما أبغضت أحداً كما أبغضتك الآن.

ثم يقفز على قدميه. ويقذف إلى منضدة بقطعة فضية من النقود:

– هاك ثمنك.

ثم يسارع إلى الخروج. فتصيح. فكرى. فكرى. وما من مجيب.

لقد كان هذا آخر عهدها به.

لقد عرفته دور اللهو من بعدها سكيراً متهتكاً لايقوم عن كأسه، ونسى الناس من أمره أنه شاعر أو أن له شعراً رقيقاً وإن تكدست فى أدراجه وجيوبه أوراق مهملة يسود سطورها سخرية مريرة من الخلق وسخط الكاره للحياة.



المؤلفة فى سطور:

شهدى عطية الشافعى

- ولد فى ١١ نوفمبر ١٩١١ بالإسكندرية.

- درس اللغة الإنجليزية فى جامعة القاهرة وحصل على ليسانسية فى الآداب.

- عمل مدرساً بالمدارس الثانوية.

- أول مفتش مصرى للغة الإنجليزية بالمدارس المصرية.

- حصل على منحة من الحكومة المصرية للدراسات العليا فى جامعة اكسفورد ببريطانيا.

- أسس دار الأبحاث العلمية فى الأربعينيات، وكانت تقيم ندوة اسبوعية كل اثنين على مدى سنوات.

- عام ١٩٤٥ اشترك مع محمد عبد المعبود الجيبلى فى كتابة كتاب (أهدافنا الوطنية) الذى شكل الخطوط العريضة للحركة الوطنية الديمقراطية التقدمية المصرية.

- انضم إلى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

- كتب فى جميع الجرائد اليسارية فى الأربعينيات مثل: الحميد، والضمير، والفجر الجديد.

- حكم عليه بالسجن ٧ سنوات.

- فى ١٩٥٦ كتب كتاب (ماذا تريد أمريكا من الشرق الأوسط) فى مواجهة الهجوم الاستعمارى.

- كتب كتاب (تطور الحركة الوطنية من ١٨٨٢-١٩٥٧).

- ألقى القبض عليه فجر أو يناير عام ١٩٥٩، مع رفاقه اليساريين.

- فى ١٩٦٠/٦/١٥ قتل تحت التعذيب بأوردى أبوزعبل، وكان يهتف بتأييد جمال عبدالناصر باعتباره زعيمًا وطنيًا.

١٩٩٩ شعر ٢٠٠٢.

أحلام شكسبيرية شعر ٢٠٠٩.

بقعة ضوء تسقط مظلمة مسرح ٢٠٠٨.

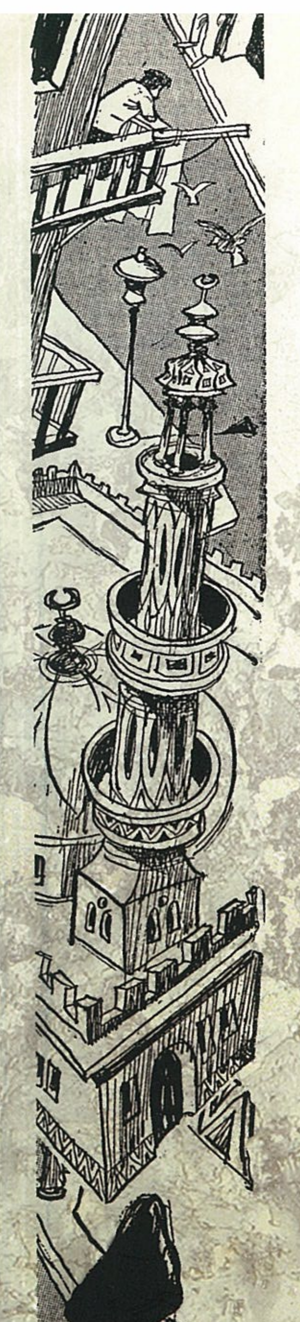
سامى حشية – سيرة نقدية إعداد ودراسة ٢٠٠٨.

شعراء السبعينيات دارمية ٢٠٠٢.

– يكتب فى الصحافة المصرية والعربية.

المراجعة اللغوية : سوزان عبد العال
الإشـراف الفنـى : محمـــود مـــراد





المجلس الأعلى للثقافة

كل وجوه شهدى المسرودة والموصوفة والمكتوب عنها، إما تعلقت ببعده الإنسانى، وأفكاره السياسية، أو حادثة اغتياله، ولكن هناك وجهًا كاد يغيب تمامًا عن الجميع، حتى رفاقه، هـذا الوجـه مجهول، ولحقه الإلغاء، وهو وجهه الأدبى والإبداعى، والذى ورد على سبيل الإشارة العابرة فقط فى كتابات البعض بينما وصفه الدكتور رفعت السعيد فى إحدى الندوات بأن روايته كانت ذات طابع سياسى محض، ولا يعتد بها أدبيًا، وكتب رؤوف مسعد بأن شهدى له رواية، ونسختها الخطية الوحيدة فى حوزة ابنته، ووردت إشارة عابرة أيضًا فى مقال لعبد المنعم الغزالى عن روايته "حارة أم الحسينى"، وكتب الباحث الهولندى والمتخصص فى دراسة الحركات الاشتراكية العربية عن نشاطه الأدبى، وذكر أن شهدى حصل على جائزة أدبية، ولكن "ماير" لم يوثق لهذه الجائزة، ولم يذكر أى تفاصيل عنها .. لذلك كان لابد أن نكشف عن هذا الوجه المجهول تمامًا، وغير المعروف، رغم عمقه، وأهميته وهو يشير إلى أن غيابه لم يكن محض صدفة، بل شاركت عناصر عديدة فى صناعته،ويضم الكتاب إلى جانب الرواية قصتين قصيرتين .

رسم كاريكاتير : حاكم
الغلاف: محمود مراد